الدار البيضاء - جنيف

رقم الرحلة : 8J 540

الكتاب : الدار البيضاء - جينيف / رقم الرحلة : 8J 540 (رواية)
المؤلف : قاسم الغزالي
الطبعة الأولى : القاهرة ٢٠١٣
رقم الإيداع : ٢٠١٣/١٠٨١٥
الترقيم الدولي : I.S.B.N: 978 - 977 - 493 - 155- 0

الناشر
شمس للنشر والإعلام
٨٠٥٣ ش ٤٤ الهضبة الوسطى- المقطم- القاهرة
ت/فاكس: ٠٢٢٧٢٧٠٠٠٤(٢+) / ٠١٢٨٨٨٩٠٠٦٥(٢+)
www.shams-group.net

تصميم الغلاف : توني سان مارك

حقوق الطبع والنشر محفوظة
لا يسمح بطبع أو نسخ أو تصوير أو تسجيل
أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة كانت
إلا بعد الحصول على موافقة كتابية من الناشر

قاسم الغزالي

الدار البيضاء - جنيف

رقم الرحلة : 8J 540

رواية

شمس
للنشر والإعلام

إهـداء

إلى والدي إدريس الغزالي

إلى لورينا ..

- الفصل الأول : علاقة غير شرعية، الوطن ١٥
- الفصل الثاني : الطائرة التي تشبه قلبي ٢٣
- الفصل الثالث : المطار ٣١
- الفصل الرابع : شرطة الحدود ٣٩
- الفصل الخامس : محطة القطار ٤٧
- الفصل السادس : مركز اللاجئين ٥٩
- الفصل السابع : الملاك الأزرق ؛ لورينا ٩١
- الفصل الثامن : بين سويسرا وسجن النوستالجيا ١٠٥
- الفصل التاسع : أيتها النجمة التي لا تموت، طفولتي ١١١
- الفصل العاشر : فوق رمال ليبيا ١٢٩
- الفصل الحادي عشر : الشيطان ينبت في دار القرآن ١٣٧
- الفصل الثاني عشر : الوطن هو الجحيم ١٤٧
- الفصل الثالث عشر : أزهار الموت، أزهار الحياة ١٥٥
- الفصل الرابع عشر : دار القرآن مرة أخرى ١٧٣
- الفصل الخامس عشر: العودة إلى الحياة ١٨٣
- الفصل السادس عشر : الطريق إلى المنفى ٢١١

نحن المنفى.

كلُّ واحدٍ منا يبحث عن منفاه الخاص، وكل واحدٍ يعيش فيه المنفى؛ قبل أن يعيش بدوره المنفى؛ بأشكال عديدة.

أيمكن أن تكون الحياة هي المنفى؟ أم الإنسان هو المنفى ؟

إننا بشكل أو بآخر نلوذ في زاويةٍ من الحياة، كمنفيين هاربين من العدم؛ في سفرنا نحو العدم.

في اليوم الذي أنشأتُ فيه مدونة إلكترونية على شبكة الإنترنت، لم أكن أعلم بأنني سأغرق في بحر بلا حدود، بحر بلا شواطئ أو مرافئ... فقط أمواج وكنوز وأسرار غارقة في القاع العميق.

لم أعلم أنني سأدخل إلى حرب حقيقية.. لكن، بأسلحة مختلفة، لا تقل خطورة عن تلك التي يستعملها الجنود في ساحة المعارك الدامية والمميتة. كما لم أعلم أنه بسبب كتاباتي سأُهدَّد بالقتل وأُطرد من المدرسة وأُتابع قضائيًا، لأجد نفسي مضطرًا لأعيش بقية حياتي بالمنفى.

لقد شكلت قناعاتي الفكرية والسياسية التي عبَّرتُ عنها من خلال المدونات والمواقع الاجتماعية عاملاً حاسمًا في قلب موازين حياتي رأسًا على عقب، ربما لأنني كنت مخطئًا لدرجة المجازفة في أن يوفر لي الإنترنت فضاءً حُرًّا للمرافعة من أجل حقوقي وتدوين همومي دون رقابة أو متابعة، ولربما كنتُ مخدَّرًا بوهم الحرية؛ القديسة الوحيدة التي تُعلِّمنا أن لا نقدس شيئًا، لكنها تتسلط وتحتكر كل القداسات لنفسها.

لقد عشتُ ولسنوات، بمجتمع لم تربطني به سوى مظاهر الثقافة الزائفة.. حفظتُ أناشيد الانتماء للوطن والدين والقبيلة والأمة الواحدة والصف الواحد واللون الواحد والإله الواحد

والديكتاتور الواحد... ثم ردَّدناها في مجموعات، حتى بحت حناجرنا ونحن صغار...
حينما كبرتُ.. أدركت بأن وطني لا يشبهني، ابن لقيط أنا لوطن عاهر، إرهابي، مستبد.

جلستُ كثيرًا مع نفسي ولوحدي لساعات وأنا أفكِّر، لماذا أنا موجود هنا ؟ في هذه النقطة بالذات، وأقف أنا مقيد اليدين والرجلين لا أستطيع الحراك.. لماذا يجب عليَّ الخضوع لبراثين الواقع عوض العمل على إعادة تشكيله من العدم ؟ لماذا لا أخطو أولى خطواتي نحو الحرية، ما دمتُ أدافع عن قضية عادلة ؟ إنها قضيتي الذاتية؛ وجودي؛ مستقبلي؛ حياتي.. أكيد يجب أن أفعل شيئًا.
لماذا لا أحاول أن أعالج وطني من جروحه وانكساراته عوض أن ألعنه في السر والعلن ؟

تكرَّرت الأسئلة بداخلي، اختلطت مشاعري، قمت وقعدت، تألمت، مِتُ آلاف المرات دون أن أفارق الحياة...
ثم في الأخير، لم أجد أمامي سوى لوحة مفاتيح الحاسوب.

أنشأتُ مدونة واخترت اسمًا لها على الفايسبوك، في البداية تقمصتُ أسماء مستعارة كثيرة، فكَّرتُ أن ذلك من شأنه أن يؤجل ميعاد موتي قليلاً...
ثم بدأت المعركة.

محارب رقمي؛ ربما دونكيشوت جديد؛ أنقر لوحة المفاتيح، فيضان جارف من الغضب يتحول إلى حروف ثم كلمات ثم نصوص طويلة، طويلة جدًا... مع الوقت أصبح عندي جمهور قُرَّاء، ولكلماتي أنصار.. مؤيدون ومعارضون، رسائل تشكرني وتمدح شجاعتي، بجانبها أخرى تسبني وتلعن أمي، تتمنى الجحيم لي الآن.

هكذا جنيتُ على نفسي، وهكذا أدَّيت ضريبة الحرية.. وأنا أتوقع في أية لحظة قد يكسر البوليس باب المنزل ليعتقلني ويحاكمني بتهمة مجرم رأي وتعبير، أو أن يتعرف إليَّ أحد المؤمنين الذين اطلعوا على كلماتي مرة فأغضبتهم بعدها آلاف المرات. يلاحقني مشيًا، يجتازني، وأبقى أنا مُلقى بالشارع؛ كقشرة نبات يابس...

هذه هي الخطوط والدوائر والإشارات التي تحبك روايتي، سأحكيها لكم، سأروي لكم قصتي كما عشتها من إحدى قرى المغرب النائية حتى مدينة زيورخ السويسرية؛ بلد اللجوء السياسي.

سأحكي لكم عن الحب والجنس.. عن الصداقة والعداوة.. عن الإيمان والكُفر.. عن الأسرة.. عن الخطيئة.. عن الملك والإله... ثم سأدعوكم جميعًا للجلوس معي على مائدة واحدة لنتأمل الطريق كما هي.

لقد كتبت هذه الصفحات في غفلة من الوقت، وكنت دائمًا أحاول أن أسرق شيئًا مني لأستعمله كآلة كاتبة ترقن كلماتي بعيدًا عن الرقابة والخوف...
فها أنا أسرقكم معي إلى عوالمي التي ترفض أن تنتهي.

• • • •

علاقة غير شرعية : الـوطـن

بقيتُ محافظًا على كبريائي، متمددًا على السرير، ملتصقًا بقوة مع ظلي المنهزم... رغم كل ما حصل ليلة البارحة ودام حتى وقت متأخر؛ لم أستطع لملمة أية كلمة هاربة، أعتقها خارجًا كتحية للصباح.

كانت هي نائمة، بينما ترسم عيناها المغمضتان ابتسامة مشبعة بالسعادة، بدوتُ أنا متعبًا محروقًا بجذوري الأمازيغية، في هدوء الظلمة وانسدال الستائر أتحرك، أسحب جسدي، أحاول قطع ما بيننا من تماس، القطيعة صعبة، مؤلمة، حادة، تقبض أنفاسي.. لكنها ضرورية... هي لم ولن تكون حبيبتي.

حُبُّنا ليس موقعًا في كناش أو عقد أو حتى تصريح عاطفي متبادل، إنه حُبُّ المشردين، عابري السبيل والمحرومين مثلي، حُبُ الجوعى والمرضى الباحثين عن أقرب دار "إطفاء" تساعد على إنقاذ ما تبقى من حياتهم البئيسة.. لقد كانت سجني؛ وأنا حارسه.. الآن انهارت أسوار السجن وصرتُ عاطلاً، لم تعد لي وظيفة، لذلك يجب الرحيل، حمل الحقائب والذات من أجل السفر نحو اللا مكان.

أزيح خرقة الغطاء المبلولة بحبنا من على نصفي الأسفل، ثم أقف عند رأسها كما اعتادت أن تزورني في " الحلم " تاركة

وراءها لا أثر.. ألمس شفاهها الذابلة من بعيد، ثم أرسم نبض قبلة يتيمة على جبينها، دون أن أنبس بحرف أو أقوم بخطوة.

متهورة توقظ الملاك من سمائها المليئة بالبرد والتسونامي، أجتاز الغرفة نحو الخارج، تحملني ذاكرتي وأنا أخطو نازلاً الأدراج إلى بقايا صور مشوشة عن قريتي ورائحة أمي المقدسة، أتذكر ضحكاتي ودموعي وأحلامي، أتذكر براءة الطفولة المصلوبة، وسيمفونية جبال الأطلس، أتذكر ألوان شمس المغيب وأنا عائد بخطو رشيق من مدرسة القرية...

أتذكر كيف تعلمتُ الاستمناء وطقوسه التي كنا نباشرها مع صبية المسجد، أو فرادى في انطواء سجودي تحت أفرشة الغرف المهجورة نهارًا.

يوم صيفي جميل، بهدوء سويسرا المعتاد، وسكونها المميت... تلمس الأشعة الذهبية جلدي، أشعر بالانتصار، مع نشوة شعور بالغربة وقوس قزح.. بين الأحياء النظيفة والمنازل العالية أرفع التحدي في وجه الصباح. أحاول تشتيت بصري بحذق نبه، كي أجد ما أدمنت رؤيته كل مطلع يوم جديد، ملقى في أبهى حلله أمامي، أو ملتصقًا بحذائي الرياضي من النوع الرديء، أريد كما هي عادتي، أن أتحدى نظافة الطِباع قبل الشوارع...

أتساءل بفيض من القلق والتوتر: لماذا كل شيء نظيف، نقي، ناصع ؟

حتى حينما زار الملك قريتنا ذات عام، رغم الشهور الطويلة التي أتَّمها عمال النظافة في التقاط الأزبال والفضلات المتناثرة كفسيفساء ألفناها وألفتنا، لم تكن هذه صورة قريتي... هل هو الفوتوشوب؟

إنه وهم وسحر الغرب الكافر.

الآن أحسُّ بالمرض، تشخيص حالتي لن تجدي معه وصفة أي طبيب، وضعي خطير، هنالك شيء جد مهم ينقصني، جزء من بنيتي الثقافية والاجتماعية غائب، بل إنه أنا، نعم أناااا.

أنا القادم من مزبلة البشرية بلا بوصلة.. لم أفقد الأمل، واصلت البحث بلهفة، كدت حيالها أن أفقد الطريق إلى محطة القطار، مخاطبا نفسي :

- خطوة واحدة فقط وسأجدك.

سوريالية أليمة، استسلمت لواقع تمنيت أن يكون زائفًا... الآن، أنا على بعد أمتار من محطة القطار، أما قلبي فقد اعتاد خيبة الآمال.. شعرت بوخزات شديدة؛ شديدة جدًا؛ تنتاب كل جسدي في انتظام وفق إيقاع مختلف عن أي شعور سابق... أحملق كما يحملقون، هم عادة لا ينظرون إلى وجهك.

أحاول أن لا أنظر إلى الوجوه وتضاريس أجساد الفتيات اللواتي لا تختفي خلف الحجاب. أحيانًا، أجد عيوني مفتوحة وذهني شاردًا، وأنا مركز بصري إلى عصفورة شقراء جالسة هناك، تحتسي الجعة وتدخن المارلبورو...

ربما أقترب منها بخطوات الشيطان، أحاول سؤالها بلهجتي الألمانية الركيكة عن شيء ما...

لحظة..ماذا لو اكتشفتْ أنني مغربي؟ هل سيكون من السليم أن أقول لها من أول جملة :

- أنا مغربي، أعتقد أنني مختلف عن المغاربة.. لذلك أنا منفي هنا.

هل ستصدقني؟..

حتى إن لم تكن لها أية مشاعر نحوي، بعد أن قام حزب الشعب السويسري بنشر رسومه الكاريكاتورية التي تصور كل الأجانب كوحوش ونعاج سوداء، لا أعتقدها سوف تصدقني.

لا، اليوم أنا سويسري، لا أنظر لأحد مهما كلف الثمن. أنا سويسري...

أقول العبارة عشرات المرات...

تذكرتُ يوم كنت بالمغرب أدرس بدار القرآن، تذكرت الأوامر الإلزامية التي كانت تجبر كل واحد من الطلبة على غض البصر وعدم النظر إلى عورات النساء المتبرجات، تذكرت كيف كانت ستصدمني يومها سيارة بينما كنت بحماس لا أنظر إلى ما يوجد أمامي وأنا أعبر الطريق، كان الواقف على الجانب الآخر من الرصيف شخصًا ما، كل ما استطعت إدراكه حينها، أنها امرأة بلا حجاب، لم يدم نظري لها إلا ثوانٍ قليلة، لم أستطع تمييز سنها؛ لون ملابسها، أو حتى ما إن كانت جميلة أو يمكنها أن تثير شهوتي... الشهوة، لا أعتقد أنني أعرف هذه الكلمة بشكل جيد. المرأة، الحجاب، الحرام... لقد دفنونا في تلك الصحراء المليئة بالبؤس والقحط والمفاهيم البالية.

• • • •

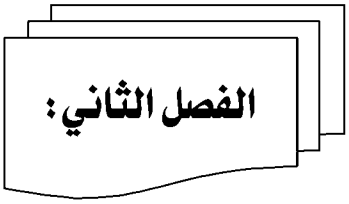

الطائرة التي تُشبه قلبي

التصقت أمعائي بظهري، بينما توزعت الأحشاء الأخرى وكل القطع داخلي إلى قسمين، يتوسطها عمودي الفقري..

توقفت أجفاني عن الحركة، صنمية درامية مفاجئة، ابتلع فمي كل الريق، وتوقفت الغدد عن السيلان..

لا أسمع أي صوت آخر يعلو فوق قداس المضيفة، كانت تلقي كلامًا مكررًا وبلغات مختلفة، بينما بجانبها؛ في وضع مرتفع نسبيًا؛ مضيفة أخرى تترجم الكلام المكرر إلى حركات رشيقة، مضيفة ثالثة تقترب مني، تسألني بفرنسية رطبة :

- سيدي عليك ربط حزام الأمان هكذا.

تغادرني لبضع دقائق ثم تعود نحوي مرة ثانية، برفقتها هذه المرة رجل طويل سمين يرتدي ربطة عنق حمراء وساعة ضخمة، تطبع وجهه ابتسامة قاسية مصطنعة، تقول :

- سيدي، رقم كرسيك ١٨. يجب أن تنتقل من هنا حالاً. تعال معي، سأرافقك.

دقات قلبي تتسارع بإيقاع مختل وغريب، الدقات تزداد، ربما تتحول قريبًا إلى نقر قوي مؤلم... لم تمضِ سوى دقائق من ركوبي الطائرة حتى مررت بالصراط المستقيم، إنه الصراط اللامرئي الشاق المنال، ذلك التحقيق المفاجئ الطويل عند

شرطة المطار، جعلني أعتقد أن حلمي الجميل في الهروب قد ذاب وتحول إلى سائل كريه الرائحة، إنني أشعر به، ها هو الآن ينساب عبر قدمي نحو مجاري الصرف الصحي، ليسكن إلى جانب أحلام آلاف من الشباب المغاربة، بالمستنقعات الآسنة في أحد الأحياء الشعبية الفقيرة... فكرت، هل اكتشفوا علاقتي بسفير سويسرا ؟

هل لهم معلومات أنني خارج إلى بلاد ثانية بلا رجعة ؟

لماذا كل المسافرين يمرون فوق هذا الصراط راقصين مغنين، بينما أرتجف وأموت في مكاني، هل ذنوبي في حق الوطن والله جسيمة، خطرة لهذا الحد، حتى أنال هذا العقاب؟

ما من أحد كان ليشك أنني لا أعاني من خلل عقلي، رغم هندامي الأنيق وحذائي الأسود اللامع، وحقيبة اليد التي تحمل حاسوبًا أبيض منقوش عليه تفاحة، تفاحة لا أحد يدري متى ومن قضمها، إلا أنني كنت مبعثر الخطوات شارد الذهن، مفجوع الجوارح.

ليست المرة الأولى التي سأركب فيها الطائرة، لكنها المرة الأولى في حياتي التي أركب وأنا أنتظر أن يلحق بي أحدهم ويحرمني حق السفر.

كل ما كنت أتمناه في تلك اللحظات البئيسة هو أن نطير وبأية طريقة، نطير نحو بلاد الشكولاتة والساعات الراقية والجبن السائل.. بلاد الحرية التي يقولون عنها، إنها فردوس الطمأنينة الكل يعيش فوق ترابها بسلام.

يقولون إنه يمكنك أن تأكل أطباقًا مختلفة من أنواع لا نهائية للحريات، يمكنك مثلاً أن تصعد لقمة جبل بحرية، أن تتزلج على الثلوج بحرية، أن ترسم خيالك وأحلامك بحرية، أن ترقص مع حبيبك بحرية...

لكن قبل كل شيء، يجب أن تتعلم كيف تكون حُرًّا، وإلا ستحرم نفسك كل هذه الهدايا.

ما إن أعلنت المحركات الضخمة احتراق الوقود، وبدت الطائرة في تحدٍ سافر لجاذبية الأرض والارتفاع، حتى صرختُ صرخة فرح هزَّت مضاجع الجميع.

لم أنتبه إلا بعدها لوجود ملاك من حرير تجلس إلى جانبي وتتصفح مجلة نسائية، قالبة الصفحات برأس إصبعها الذي يبدو كقطعة حلوى..

كانت تنظر لي بنظرات غربية باردة، بينما أبادلها نفس الحملقات من خلال زجاج النافذة.

كان الزجاج يعكس أطيافًا من هنا وهناك، وكنتُ أتظاهر بأنني أتأمل فوضى مدينة الدار البيضاء وأحياء الصفيح المحيطة بالمطار، وأكياس البلاستيك السوداء التي تطير دونما مناسبة أو حتى حاجة لجواز سفر.

كنتُ أتأمل الملاك الجالسة إلى جانبي من جديد..
الآن أصبحتْ نظراتي فاجرة... أحاول لمس لحمها الذي يجر خلفه قصة طويلة، اللحم الذي يحكي في صمت عن تاريخ الوطن، أسمع الوطن في كل مكان، أقرأ في عيونها، الوطن بداخلي وأحيانًا أحمله تحت جناحي..
الوطن الحقيقي الوحيد الذي يجمعنا هو الكون، والأرض مشاع للجميع.

كلام كثير مكتوب على صدرها البارز، أدقِّق، ثم أحاول فك رموزه المشفرة بين حلماتها.. جميل أن يكون لنا انتماء للعادات والتقاليد والأعراف، لكنها قمة الانحطاط أن نهدي انتماءنا إلى محترفي السياسية ليصنعوا منا أسلحة تدمرنا.

ثم أغفو ما تبقى من الرحلة.

يزورني في الحلم رجل محدودب الظهر، يحمل ريشة طاووس صفراء، يرتدي قبعة طويلة سوداء عريضة، وبنطلونًا قصيرًا.. يقول لي:

اسمع، اسمعني جيدًا... أنت الآن ذاهب إلى سويسرا.. هذه الكلمات التي سأهديك ربما تفيدك في فك طلاسيم الحياة المعقدة. يا ولدي: إن في قلب كل الفضاءات السوداء المعتمة نقطة بيضاء، قد تكون بحجم دمعة الجنين، أو دمعة زهرة في قلب ليلة شتاء قارسة، نستغرق كثيرًا حتى ندرك وجود الدمعة، لكن حسنا الدفين والضارب في العمق، يجعلنا نرسم لها صورًا عديدة بأحجام لا تختلف كثيرًا عن وجه الحقيقة، نواصل المسير ذهابا وإيابًا على خشبة المسرح بأزيائنا التنكرية، نحاول غير ما مرة التخلص من الخيوط الدقيقة التي تحاصرنا من فوق. كراكيز نحن، لكن في شرايين قلوبنا المعدنية تسري دماء سوداء، أما ما بداخلنا، فقد يحار المرء في التمييز بينه وبين الصوف الحيواني.. نجتاز بأنصاف خطواتنا مسالك وطرقات ومساحات جغرافية صامتة، ساكنة، تعاني مرارة الألم في تيه أزلي مستمر..

مرَّت من هنا ومن هناك؛ بل وأحيانًا من أعماق المحيطات؛ حضارات وثقافات وأعراق كثيرة، مرَّت في لحظة من حياتها

وهي تبحث عن تلك النقطة الدقيقة البيضاء.. أنت الآن في بداية بحثك عنها، فقط تذكر ولا تنسَ؛ ماكينة التاريخ شريرة، لا تعترف بضعاف النفوس والإرادة، خصوصًا أننا نعيش في أزمنة استولت عليها التعويذات السحرية، وعرق الوهم البشري الكثيف، إنه زمن كوابيس الانتماء البشعة، لا تنخدع، واصل بحثك عن نقطة الضوء.

أفتح عيوني على صوت الربان :

- أعزاءنا المسافرين، نحن نحلق الآن قريبًا من مطار جنيف الدولي.

• • • •

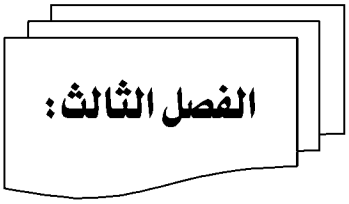

المطار

لم أصدق نفسي وأنا أطلُّ بكل أطرافي من مصعد الطائرة محدقا في كل مكان.

يبدو الهواء مألوفًا حتى الآن، لم يتغير شيء.

الشمس هناك في مكانها وبنفس لونها المعتاد، وخصلاتها الشقراء المشعة، وبريقها السائل الخاطف للقلوب...

تمامًا كما حلمت بها، بعد سنوات عديدة بلياٍل طوال، كنا هنالك بالوطن اليتيم نعاقر كؤوس النبيذ الرخيص ونحن نمارس العالم السفلي والمعاشرة الجماعية لليل، أو نراجع بعض المحاضرات من مذكرات التاريخ، وكراسينا الخشبية المهشمة الأرجل تستغيث ثقل أحلامنا المسافرة بلا حدود، بينما أرجلنا مغطوسة في الماء البارد كي نقاوم النوم سوية استعدادًا لامتحانات البكالوريا، نقرأ ونسمع، ثم نحلم من جديد بشمس الحرية، وعصر الأنوار وفلسفة الإنسان.. نرتكب كل الأسئلة الوجودية ونرتكب كل أنواع الخطايا، ثم ننتهي بمضاجعة الله على موائدنا الفقيرة، بكأس شاي وقطعة خبز حافي.

كرهنا خريطة اسمها الشرق.

كما كرهنا كل شيء يأتي من جغرافيته، حتى شمسه نحن في غنى عنها بعد أن أضاءت بيوتنا مصابيح الغرب وشموع الغرب وكتب الغرب. شمس الشرق مدمرة، حارقة كنار جهنم، الكل هنا

يحكي قصتها، يوم أتت إلينا محملة بأيديولوجيا الحقد والحرب، وألسن من الكآبة الجارحة والرياح المشبعة بكل أمراض الروح والبدن...

تشرق في الصباح بأطنان من الهمِّ والألم...

وتغرب في المساء وقد لفظت وراءها مجاعات وآفات خطيرة وأرواح موتى لا تغادر الأرض.

وكلما أفقنا من نومنا؛ نحلم بالشمس من جديد، وننتظر على كراسينا المهشمة الأرجل يومًا ما، يومًا تكسر فيه القواعد وتطلُّ علينا برحمتها المنقذة من وجهة جديدة غير الشرق اللعين.

العاشرة صباحًا...

حياة نشيطة بالمطار، عربات زجاجية صغيرة في حركة سريعة، وجوه من الذاكرة تمرُّ أمامي كوميض البرق، بكل ما تحمله من مكرٍّ وحنانٍ وخيالٍ فاسد لا يصلح لأي مشروع إنساني أو حتى هدف تافه، قد أبدو مجحفًا، متنكرًا، منسلخًا، فارًا من حقيقة وخبث نفسي، قد تكون تلك الوجوه التي أكرهها هي أنا، هي صفتي ومركبات نقصي، هي تشوهاتي وضوضائي.

إنها وجوه منحوتة بعمق على صدري النحيف، كلوحة سريالية بدون ألوان، حدس مركب متعفن بقتامة المنشأ ووحشية الطباع، أستطيع أن أخمن أسماءها وأعمارها، ابتسامات مكسورة وباردة يقبع وراءها كون من الألغاز.

أتطلع باهتمام إلى سماع نبض السكون الذي يطبعه الجميع تحت معاطفهم، أترنح بحقيبتي ثم أقف مثلما هم واقفون، أنتظر إحدى العربات الزجاجية التي ستقلنا لحمل أغراضنا والخروج من المطار الذي بات يخنقني.

ينظر إلى عيني من تحت نظارته التي تبدو كأنها مكسورة فوق أنفه الدقيق، يسألني:

- عمل أم سياحة؟

أتمتم وأنطق بمشقة :

- لاجئ سياسي.

يدفع جواز سفري برؤوس أصابعه وكأنه قطعة ورق مرحاض نجسة، يقول مصطنعًا المحبة :

- حظ سعيد.

سمعت حينها بعض نبض، نبضات روحي المفجوعة وجراحي المكسورة، دموعي الباردة المتحجرة بعيوني، أحسستُ برغبة

في البكاء والصراخ والتمدد على الأرض وركلها كما نفعل ونحن نعيش أجمل سنوات تمردنا الطفولي.

لكنني الآن أشيخ وأحاول التخلص من الذاكرة، لا أرغب في الخلف أو حتى حساب كم خطوة اجتزت، فقط الآن بدأت، اليوم وُلدت، وشهادة ميلادي هي هنا.

أمواج من الحمم المنصهرة تصلبت، هي الآن صخر كلسي بعروقي...

لم أعد اشعر بمن حولي، ولم أعد أشعر بالحرج في نطق بعض الكلمات بالحرف العربي، أضحك بشكل هستيري كأحمق فقد كل شيء ولم يبق في ملكه سوى عقل لا يدرك أنه عاقل.

ما إن وصلت آخر بوابة لمغادرة المطار، حتى استفقت من وهمي ودخلت إلى حبكة وهم آخر يقول :

- أفق من أحلامك. أنت لست بالغرب يا معتوه. إنك الآن تبني زنازين غربتك.

لم أجد هنالك أحدًا ينتظر قدومي بلوحة مخطوط عليها اسمي بشكل محترم، أو موظف يجيب عن تساؤلات طالب لجوء مجنون.

لساعات طويلة وأنا مصاحب لحقيبتي كصنم لا يثير اهتمام أي فضولي، إلى أن وجدت شابًا يحاول طرق نفس الباب الذي كنت أهم بطرقه. سألته :

- سيدي، هل تدلني على مكتب شرطة الحدود، فقد بحثت طويلاً لكنني لم أهتدِ إليه. أرجوك ساعدني.

ابتسم في وجهي بعد أن ركّز عيونه علي يتفحصني، وكأنه يتساءل من أكون وما سرّ لكنتي الفرنسية الركيكة...

أقاطع نظراته قائلاً :

- إنني لاجئ ولا أعرف ماذا أفعل الآن، فقط وصلت سويسرا للتو.

يسألني عن بلدي وسبب لجوئي ووضع حقوق الإنسان والحيوان والحشرات بالعالم الإسلامي، بينما يحاول مساعدتي في جرِّ حقائبي ونحن نبحث عن مكتب شرطة الحدود.

• • • •

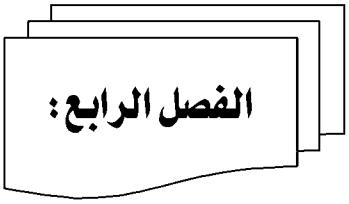

شرطة الحدود

يحمل سماعة الهاتف، يجري بعض المكالمات السريعة، يسألني ما إذا كنت أودُّ شرب كأس ماء، يطلب مني الانتظار حالما يخلص من مكالماته المهمة.

يعاود الطلب من جديد كلما وضع سماعة الهاتف قبل أن يستقبل اتصالاً آخر.

يبدو المكان كمركز اتصال للشرطة، نعم.. إنها شرطة الحدود.
لا تمر ثانية دون أن تسمع رنين الهواتف يمر عبر المكاتب التي كانت تفصل بينها جدران من زجاج كاشف.
كاميرات معلقة على زوايا المكاتب والممرات الضيقة، في كل مكان تقريبًا..

يدنو مني شرطي آخر.. يسألني: ما اسمك، أمنحه جواز سفري، يتهجأ حروف اسمي ولقبي بشكل متناثر ومشوه، يطلب مني الانتظار قبل أن ينصرف.

لا فكرة عندي عن من يجب علي انتظاره، وإلى متى سيدوم هذا.
كل ما يهم هو أن أحافظ على فعل "الانتظار" حيًّا...
بأوطاننا، أيضًا نمارس كابوس الانتظار، ننتظر طويلاً جدًا إلى أن نفقد الأمل. ثم نخلع كل شيء جميل أمام قدر الأيام اللامنتهية ويلبسنا اليأس، تغادر نومنا الأحلام لتعوضها الكوابيس وتحملنا

الفاقة والهوان بعيدًا إلى كهوف الظلام، حيث تعيش خفافيش السياسة تتغذى وتسمن من مصِّ دمائنا بمباركة من الملك والله.

في وطني.. نموت كل يوم، مع كل دمعة جوع لطفل رضيع.
نموت مع مرارة طعم الأيام التي يطهوها العاطلون عن العمل كقهوة سوداء على أفران اليأس والتهميش بمقاهي لعب الورق.

بوطني.. لا يوجد معنى للانتظار دون خرافة ودجل، تنتظر جدتي الهلال مرتين من كل سنة؛ قبل شهر رمضان وعند اقتراب انجلائه، تصعد إلى سطح منزلنا وفي يدها شيء من ملح الطعام أو السكر ثم تتوجه إلى السماء تضرعًا في انكسار قاسٍ للروح، هنالك تضع قلبها وفكرها بين الحقول والمحاصيل، ترجو من الإله أن يباركنا، علَّموها أن خصوبة الأرض من رحمة السماء.

ينتظر الكثيرون غيرها الجنة، بحورها العين وغلمانها وفواكهها الأوربية، يُصلون بالموت ويتمنون الشهادة...

اختناق المشاعر، المرض النفسي، المعاناة والحرقة والألم بكل ألوانه، كل ذلك جعلهم يكرهون الحياة، ليتمنوا الخلاص في الموت. والمتعة في طول اللحى وسجن النساء، والسعادة في الخيال الأسود.

في بيئة الحرية والعدالة الاجتماعية، تحيينا كائنات حية لطيفة جميلة، نشتهيها بعيوننا وقلوبنا.. نحلم صباح مساء، بلقاها والسفر على متن الرمال السائلة في مجازفة خطرة بأمل بسيط في العيش هناك...

أما هنا بالوطن..

على جانب كل مسجد في حي شعبي أو قرية معزولة يوجد مستنقع آسن، وحشرات طائرة، وديدان تعيش وتنمو وتلعق من خبز عيشنا، حلم هؤلاء الشباب بالهجرة تعبير عن رفضهم، ولربما في قرارة أنفسهم، كرههم للمساجد والخطب الدينية والمستنقعات الآسنة المحيطة بها، رفض للبيئة التي لا تنتج المحبة ولا تنتج الإنسان... سوى الخراب والقلق...

وأنا أنتظر؛ تذكرتُ رواية المحاكمة للكاتب التشيكي فرانز كافكا، أحسستُ برغبة قوية في قرائتها من جديد، شعرت ببطلها السيد "ك" وهو يقاوم العدالة ويبحث عن جريمته في قاعة المحكمة منتظرًا حكم القضاة، ثم شعرتُ بازدراء مفاجئ لشخصي الفار من الوطن وأنا أطالع ببصري صور مشتبه بهم معلقة على باب المركز فارين أيضًا، ثم رحت أتسائل: لِمَ الفرار يا ترى؟ ربما ليس كلهم مذنبون أو أصحاب سوابق، هنالك من يفرون من العدالة خوفًا عليها من صدمها، من أن تقف أمامهم عارية

باهتة نيئة، بينما هم مجرمون ببراءة أصلية، هنالك من يفرون بعيدًا فقط كلما ذكرت سيرتها، لأنها بشعة نتنة مريضة، أحكامها مميتة قاسية، قادرة على إنزال عقوبة الرجم والصعق، أما مقاصلها فحادة وأنيابها تقطر بالدم...

هنا سويسرا...

يجب أن تتعلم الانتظار...

يجب أن تتلقى دروسًا خصوصية حول الانتظار، شرط مهم كي تندمج في هذه الحياة الجديدة، وتوفِّر على نفسك مصاريف وتعب مسكنات الألم والحبوب المضادة للإكتئاب.

مرة، أتذكر أنني كنت رفقة صديقي "ستيفان" بسيارته نتجه من مدينة "بييل" إلى العاصمة "برن".. كانت تعيق تقدمنا سيارة بطيئة جدًا، شعرتُ بالاحتباس النفسي، ورحت أسأله :

ـ لماذا لا نُنِّبه هذا السائق حتى يسمح لنا بالمرور؟

ردَّ مبتسمًا بعد صمت طويل وكأنه كان يفكر في ما سيقوله :

ـ يا قاسم، أنت الآن بسويسرا. انظر إلى لوحة السيارة؛ إنها من برن، أناس تلك المدينة يتحدثون لكنة ألمانية بطيئة، حركاتهم أيضًا بطيئة، هم يستمتعون بالعرض البطيء.. صديقي، يجب أن ننتظر، حتى لا نفسد عليهم متعتهم.

يرجع الشرطي، معه جواز سفري، هذه المرة يحييني بابتسامة، يبدو أكثر لطفًا ممن قابلتهم بالمطار أو على متن الطائرة، يخبرني بأن كل شيء على ما يرام، وبأنهم اتصلوا بالسفارة السويسرية بالمغرب. يقول إنه علي الذهاب من هنا نحو مدينة يوجد بها مركز يمكنني أن أمضي به بضعة ليال.

يرافقني نحو محطة القطار، يشتري لي تذكرة، يمدني بخريطة وعنوان مركز استقبال اللاجئين...

أنتظر من جديد قدوم القطار.

• • • •

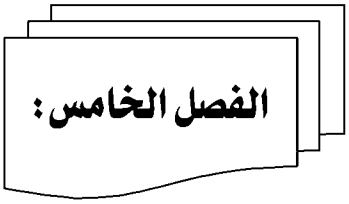

محطة القطار

أقف منتصبًا كركيزة مفقودة بمحطة القطار وبجانبي حقيبتي الثقيلة. حولي تذوب أجساد وهي تتحرك في متاهات وخطوط تنحرف وتنكسر ثم تختفي عند المداخل والممرات المختلفة، هنالك وجوه كثيرة؛ لكنها بلا ملامح بارزة، لا يمكنك النفوذ إلى ما ورائها، فقط ضباب لا مرئي يغطي الوجوه والقلوب ليعيق أي تواصل إنساني حسي بين هؤلاء البشر، الكلُّ يدب في حركة متوترة ومشحونة بالحذر. أحاول الاقتراب، الابتسام في حضرة الوجوه التي تلتقي عيوني بشيء من ضبابها، لعلي أنجح في سرقة نظرة أو غمزة في غفلة مصطنعة؛ وإن كانت زائفة؛ تعينني على قتل الحزن واستعادة الثقة في النفس، بعد تلك المعارك الماراطونية التي مررت بها وأنا بمطار جنيف الدولي.

كم هم الواقفون مثلي الآن كركائز، بقلب يتيم وسط الركام البشري، يناجون العواطف المنسية. حتمًا، أنا ورغم تراجيدية قصتي لست الاستثناء الوحيد هنا، أو على الأقل في هذا العالم المضاء بمصابيح الإنارة العمومية، كل جسد في هذا الركام يحمل حتمًا قصة.. ما لونها، ما عنوانها، مَنْ رسم غلافها ؟ قصص تشكل مكتبة الحياة الغاضبة عن ما اقترفناه في حقها.

أنظر إلى القطارات فأتخيلها توابيت موت يدخلها الأحياء بحب، أما الأرض التي أقف فوقها، المطلية بألوان وعلامات مختلفة،

فأني أسمع صراخها وهي تستغيث: النجدة، قد أحرقنا بشرتها الأم بوطء أقدامنا القاسي ورذاذ بولنا السام. أما الكون ورغم اتساعه المستمر فلم يعد يحتمل كل هذه الكراهية السوداء وهذا الضباب الزائف.

جسدي مرهق، وجهي ذابل، وتطبع جبهتي قطرات عرق لزجة، كأنها قطعة زبدة فاسدة.. أما صدري النحيف الذي تغيبه التضاريس بفعل تعرية السم، فيشعر بضيق المشنقة الحريرية التي كانت ملفوفة حول عنقي الطويل، إنها جزء من البرتوكول الذي أكرهه في اللباس، لطالما رغبت في ارتداء بدلاتي الكلاسيكية دون ربطة عنق سخيفة؛ لباس حر دون تعقيدات أو إضافات ذات لا معنى.

أحرك أصابع يدي في جيب البنطلون، أستشعر أعضائي التناسلية من تحت الملابس الداخلية، دون أن يحصل تماس مباشر بيننا.. تعم وجهي ابتسامة فرح خفيف.
كل شيء في مكانه الطبيعي وعلى ما يرام، أعضائي التناسلية هنا، والمحرك جاهز ومتأهب لأية عملية مهما كانت خطرة، أعضائي تسجل وقوفها الرمزي وتضامنها معي، إنها تنتصب لإلقاء التحية على من طبعت وجوههم شقاوة الحياة وضباب الحزن، أعضائي الوفية عاقلة وحنونة، رغم ما طالها من جوع

الشهوة والحرمان وأوصاف الاحتقار الذي لم ينصفها في كل لغاتنا، إلا أنها الآن هنا، وسأمنحها الحق الطبيعي في غزو بلاد الكفار واحتلالها، سأسمح لها بخوض تجارب جديدة، واستعادة كل الأمجاد المنسية.

وأنا أعيش أمنياتي الإيروتيكية.. فكرت لوهلة في سخافة شخصي، تفاهة ما راح خيالي الفاجر يقترفه من جرائم في حق الأجساد الأنثوية التي تمر أمامي، تدوس قلبي بأحذيتها المكعبة، أجساد لا يسترها إلا جمالها الطبيعي..

سراويل ضيقة، وزرات قصيرة تظهر التضاريس الحنونة، أعضاء شامخة كأهرامات مصر الأسطورية، كفاكهة أطعم بها عيوني الشرقية.

قلت مع نفسي بتوبيخ ولهجة فقيه ماركسي:

- انضبط يا قاسم، يلزمك الكثير حتى تحرر شخصك من قبضة الثقافة الذكورية التي جعلتك تنظر للمرأة كجسد...

لكن... ما الفرق بيني وبينهم؟

هم ذكور وأنا ذكر..

بل حتى الأنثى تشتهي الذكر، وتتفنن في سرد ووصف عورات الرجال وهي منزوية في حجراتها الصامتة...

لعنتُ الثقافة والمنطق والأخلاق.
وقلتُ أقدِّم حياتي فِداءً لواحدة من تلك الشقراوات، إنها الغريزة تتكلم الآن، ومن حقها أن تشرب حدَّ الإشباع، ما دام الخيال هو مائدتها الوحيدة هنا.
كما لا يمكنني وضع حدود رقابة على خصوصية خيالي الزئبقية وحريته القديسة.. لقد ضِقتُ ذرعًا من خطوط الرقابة القاسية التي دفعتني للفرار من وطني.. ثم إنني شاب في بداية حياته، ومن حقي أن أعرف الجنس وأجرب أنواعه وألوانه وكل أصنافه.

وصل إلى المحطة القطار الذي سيقلني إلى منفى المغضوب عليهم، إلى مركز اللاجئين، كنت متحمسًا بقوة لهذه التجربة الجديدة.
لقد ظننت أن من سألتقي بهم هناك هم حقًا لاجئون قادمون على بساط الأمل نحو الحرية المفقودة، بعد أن ضاقت بهم الدنيا وهم في أوطان القهر والحرب..

ركبت القطار، وحقيبتي ورائي مستسلمة لقدرها.. كان القطار مزدحمًا بالمسافرين وحقيبتي تعيق حركة المارين بين المقصورات المربوطة بإحكام إلى بعضها البعض كفيلق من

المشاة على مدرعات الحرب. بجانبي جلست وجوه جديدة، بثياب أنيقة وروائح عطر راقية، يتحدثون بالفرنسية عن أشياء لم أفهمها.. كل ما كان يشغلني هو ذلك الشعور الوحشي الذي انتابني على شكل شكوك قاسية، شعور حزين يهمس في أذني :

- الكل يراقبك.

شكلي مختلف اختلاف المد عن الجزر، حتى جبهتي السائلة بعرق مغربي تنضح برائحة طاجن أكلته ليلة البارحة بالدار البيضاء.

يمر مراقب التذاكر.. إنني أراه قادمًا، هو الآن يقترب، يلقي التحية، يدقق النظر في تذكرتي. يتفحصها بلطف، ثم يقول :

- تذكرتك خاصة بالدرجة الثانية، لكنك تستقل الدرجة الأولى.

- آه. آسف. لم أعلم.

ردَّ قائلاً :

- لكنني أعلم.. الآن، أمامك خياران، إما أن تنتقل للدرجة الثانية أو تدفع مبلغًا إضافيًا.

- لا طبعًا سأدفع.

وإن كنت لا أسافر في الدرجة الأولى عادة، ثم إنني وجدت المكان مزدحمًا فاعتقدت أنني بالدرجة الثانية. في بلدي كل

الدرجات الأولى، وفي كل المجالات تستقلها نخبة قليلة جدًا، ومعدودة على رؤوس الأصابع.

دفعت له مبلغ ٤٠ فرنك سويسري، لأحصل على تذكرة الدرجة الأولى قبل أن يغادرني...

حين وصولي إلى مدينة لوزان، كنت ملزما بتغيير القطار.
لكن هذه المرة، سأنتبه جيدًا حتى لا تسرقني الدرجات الأولى.

لقد كنت بوطني طيلة حياتي مواطن درجة ثانية..
في السوق، كنا نشتري الماركات المقلدة من الملابس والأثاث.
كيف من المعقول أن أكون ببلاد الغرب مواطن درجة أولى، أن لا أرضى بما هو ثانوي وهامشي، وإن لم يكن في الأصل كذلك.

بينما أهم بنزول أدراج وجدتها شاقة؛ أدراج من الصعب أن تجعلني أمر أنا وحقيبتي في وقت واحد.. شعرت بيد تضع أناملها على كتفي قائلة، وقبل أن ألتفت لأرى وجهها :
- دعني أساعدك.

التفتت بفرح شديد...
كانت امرأة في الثلاثينيات من العمر.. تبدو من أصول إفريقية، بشرتها سمراء ولباسها تقليدي مع موضى حديثة.

سألتني عن موطني وماذا أفعل بسويسرا، فقلت لها بمودة :

- إنني لاجئ.

لم تخف فجأتها وهي تقول :

- كيف لشاب وسيم وأنيق، يبدو متعلمًا أن يريد تقديم طلب اللجوء؟

لم أفهم جيدًا ما قالته، لأنني حينها، اعتقدت أنها تجهل ما هو اللجوء السياسي.

اقترحتْ عليَّ الزواج وأشياء أخرى طربت لسماعها...

شكرتها على شعورها النبيل، وفتحت فمي في ابتسامة عريضة قبل أن أودعها.

أستقل القطار من جديد...

هذه المرة نحو مثواي الأخير لهذا اليوم.

لا شيء يختزل حياة المتدينين مثل دورة القطارات، إنها تمضي في حركة سريعة.. لكنها تبقى مثبتة بقوة فوق سكة سوداء صدئة، مشدودة إليها بإحكام...

مهما كانت المحركات قوية، فإن الوجهة تبقى هي نفسها دائمًا، حلقة ضيقة جدًا. رغم شساعة المسافات التي تعبرها... علاقة تمنع احتمال حدوث أي سيناريو آخر خارج قاموس الركوع

والسجود والإيمان. أي انحراف هنا، أو محاولة انزياح من على إحدى الخطوط التي ترسمها السكة، ستكون نتيجتها مدمرة.
إنها إلى حد ما، نفس الصورة التي تشخص المخاض الذي قد يمر به كل مسلم وصل إلى قناعات دفعته إلى التخلي عن الإسلام... في الوقت الذي يجد نفسه ملزمًا بالعيش، بين وعلى سكك اجتماعية وثقافية وعرفية تحكم خطواته وفكره بمشانق من فولاذ.

أقف لالتقاط أنفاسي مكبوسًا بين جدران محطة القطار وأسقفها القرميدية..
هنالك مدخل أول، تليه أدراج تقودك نحو الطابق الثاني، ثم بوابة خشبية كبيرة مزركشة بنحوتات أجساد جامدة، تبدو أنها تعود لحقبة ترتبط فيها بألغاز كانت لها حياتها في هذا المكان...
هنالك أيضًا لوحات زيتية تفتقد لأية إضاءة، ما عدا مصابيح صفراء باهتة في أعلى السقف، ما يجعلها تبدو كثقوب سوداء مثبتة على الحيطان.

ممسكًا بالخريطة التي حصلت عليها من شرطي المطار بيد، بينما أجرُّ أنفاسي المنصهرة وبقية الحقائب بيد أخرى، على نبض خطوات غير ثابتة وشاقة تشبه الحبو.. أدفع الباب الكبير بكتفي في خروج رمزي نحو الضوء.

يرتطم بخديَّ هواء بارد، ويسافر شعري مع سيمفونية الرياح وهي تغازل أغصان الأشجار الحية. منظر منعش يخطف القلوب المسافرة على بساط الأحاسيس الجميلة.

من هنا أستطيع رؤية كل المدينة، بمسالكها المتشابكة كمتاهات حقيقية، ومنازلها الممتدة بنظام هندسي فريد، ونهرها الشبيه بأفعى سحرية، النهر الذي يقسمه جسر كبير راسمًا بذلك ابتسامة تجمع حول خذيها شيئًا من السيول والخضرة والمعمار الحديث.

• • • •

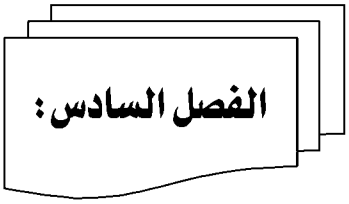

مركز اللاجئين

لا بد أن العنوان الذي تحيلني عليه الخريطة يوجد أسفل الطريق المنحدرة.

إنني الآن أنزلق.

أطير مع خطواتي المهزوزة، في براءة وحماس شديدين.

أواصل تقدمي إلى طريق تنتهي عند بناية ضخمة بعدة طوابق.

هنالك سياج حديدي عال.

في الوراء، ساحة وملعب كرة سلة.

أتقدم الآن ببطء نحو المدخل الزجاجي.

يفتح الباب. يتقدم نحوي شخص بلباس أمني، بيده حلقة مفاتيح، أحييه ثم أعرض عليه الخريطة كي يرشدني إذا ما كان العنوان صحيحًا.

في الوقت ذاته، كان هنالك أشخاص يدخلون ويخرجون من الباب الزجاجي، ينظرون إلي، بوجوه مليئة بعلامات التعجب.

رجل الأمن نفسه، لم يكن حديثه معي متماسكًا، أو ربما لم يتوقع حضوري، ومعي جواز سفر يحمل تأشيرة سياحية لمدة شهر. قال :

- لماذا تريد طلب اللجوء، إقامتك ما تزال صالحة لمدة شهر؟ يمكنك الذهاب والعودة حينما تصبح إقامتك غير شرعية؟

أجبت :

- نعم، لكن سفارتكم بالمغرب منحتني تأشيرة دخول البلد كإجراء احتياطي فقط. إنني الآن بحاجة لاستكمال الإجراءات القانونية حتى أحصل على أوراق الإقامة.

يصمت قليلاً ثم يغادرني.

أتبعه محاولاً اجتياز الباب الزجاجي نحو الداخل، يلتفت قائلاً:

- من فضلك، انتظر هنا.

الآن ينظرون إلي من وراء الزجاج الشفاف.

لا أدري ما الذي يناقشونه.

أعتقد أنهم يجرون بعض المكالمات الهاتفية.

ربما تكون مجرد طقس من طقوس البيروقراطية السويسرية.

اكتشفتُ فيما بعد، أنه في تلك اللحظة، لم أكن طالب اللجوء الوحيد الوافد على مركز استقبال اللاجئين.

لقد كان بالداخل بعض الأُسر والأفراد من دول إفريقيا وآسيا.

لكنهم كانوا يعاملونهم بطريقة غير تلك التي عاملوني بها.

رجحت أنه عمل روتيني.

عادة، لا يقدم طالب اللجوء جواز سفره، بل يقوم بإتلافه.

إن غالبية طالبي اللجوء لا يدخلون التراب السويسري بطريقة شرعية. ناهيك عن لباسي الأنيق والحقائب التي كنت أحملها بالخارج.

مضت تقريبا نصف ساعة. أغرق في بحر من الأسئلة وأمواج القلق. صوت رجل الأمن ينتشلني سألته :

ـ قاسم، تعال هنا. تقدم من فضلك.

أستجمع ما تبقى من قواي.

أجتاز الباب الزجاجي، كما كانت تجتاز أشعة شمس الصباح روحي المتعبة.

أنظر حولي متأملاً :سيدة تجلس خلف شباك، أمسكتْ جواز سفري، ثم منحتني ورقة مكتوبة بعدد من اللغات. عليَّ ملؤها بمعلومات تتعلق باسمي، جنسيتي وديانتي.

شاهدت النزلاء وهم يفتشون بعد العودة من فسحة اليوم، خلف ستار معتم، تتراقص خلفه حزمة رؤوس من طالبي اللجوء، بينما يقوم الحراس بتفتيشهم، كانت هذه بعض الرسائل المشفرة الأولى التي حددت من خلالها طبيعة العلائق داخل المركز.

أعيد الورقة إلى السيدة.

صحبني حارس آخر إلى الغرفة المجاورة لتفتيشي.
إنها المرة الأولى، بعد واحد وعشرين عامًا، المرة الأولى التي سأتعرض فيها لتفتيش كما لو كنت لصًا، وأنا في استسلام تام لقدري. إنه انتهاك كامل لخصوصيتي.
الحارس الضخم يعبث بأغراضي، حتى الصابون لم يسلم من شرِّه.
عما يبحث هذا الإنسان ؟ طوَّح بكل ملابسي وأوراقي وكتبي على الأرض.

رجوته :
- لا حاجة للاعتداء على أغراضي. إن أردت التفتيش، فتش براحتك ؟ لكن كل قطعة على حدة.

لم ينبس بكلمة.
طلب مني أن أقلب حقيبتي كلها على الأرض.
بعد رفضي، تقدم إليها بشكل جنوني، وبدأ بخضها إلى الأسفل بطريقة أشعرتني بدوار شديد.

لم أجد وسيلة لكي أعتذر من الحقيبة، لكنها الآن صارت أداة حادة تجرح مشاعري. علاقتي بالحقيبة لم تعد مجدية. تمنيت حينها لو كنتُ وحيدًا دون حقيبة.

ما نحمله بداخلنا يغنينا عن حقائب تتحول في لحظة ما إلى سوط تجلدنا به لعنة الآخرين.

إلى حد الآن لا أدري عما يبحث. سألته بسذاجة :

- سيدي، إن كان هنالك شيء تحتاجه فما عليك سوى سؤالي عنه مباشرة.

لكنه استمر في البحث بين الأحذية والكتب والرسائل الغرامية القديمة، يبحث عن شيء لا يوجد إلا في مخيلته...

بعد أن أصابه الملل والقنوط، وضاقت به الدنيا من البحث، وجَّه بصره إلي وسألني :

- ضع كل ما بجيوبك على الطاولة.

الهاتف، حاملة النقود، وبطاقات عضوية بجمعيات حقوقية، بالإضافة إلى بطاقة ائتمان بنكي ومبلغ نقدي يقارب الثلاث مئة أورو...

وضع النقود والهاتف والبطاقات بكيس بلاستيكي. ألصق عليه قطعة ورق كتب عليها عددًا من الوحدات والعشرات والآلاف...

رجوته. توسلت إليه. كدت أقبل قدميه من أجل أن يمنحني شريحة الهاتف التي بها أرقام أصدقائي ومعارفي بالمغرب ودول أخرى.. لا بد أن تكون في هذا العالم طريقة للاتصال بهم.

كل المؤشرات سوداء، غارقة في السلبية، لا تمنح الأمل أو حتى شيئًا من الحدس الكاذب..

أعمل الآن على تجميع الشتات ومداواة الإهانة التي طالت أغراضي. أحمل كل قطعة على حدة، لكن لا يمكنني أن أطيل النظر إليها من شدة الحزن. أكتفي بتكديس الأغراض بعشوائية وكأنها مرآة حقيقية لحالتي النفسية.

لقد أخذوا مني حاسوبي ونقودي وكل أغراضي الأخرى: أوراق، مسودات، كتب، صور فوتوغرافية، بطاقات بريد، رسائل حب.. ببرودة قالوا :

ـ سنعيد لك أغراضك حينما يأتي قرار من مكتب الهجرة بنقلك من مركزنا.

طلبوا مني تغيير ملابسي، لأن هندامي الأنيق سوف يسبب سوء فهم بيني وبين بقية النزلاء.

دقائق معدودة ثم أسمع:

ـ أسرع، هنالك نزلاء جدد ينتظرون التفتيش.

اكتشفت بعد أيام أن طريقة استقبالي كانت من أفضل الحالات التي قد يتصورها طالب لجوء.

دائما ما يطلب منهم خلع الملابس كاملة، والوقوف كما ولدتهم أمهاتهم لساعات. قد يسوء الأمر إلى حد اللكمات والرفس لانتزاع اعترافات تشرح كيف وصلوا إلى هنا، عن هوياتهم، بلدانهم، حتى هؤلاء الذين مدوا لهم يد المساعدة كي يصلوا إلى هنا...

هنا، قاعة مجاورة للغرفة التي فتشوني بها، حجرة مستطيلة دون أية نوافذ، بسقف عال، محدودة من كل الزوايا بكراسي خشبية مثبتة إلى الجدران بقضبان حديدية. بعد دقائق،التحقتْ بي فتاة في أواخر العشرينيات، ترتدي ثوبًا طويلاً وحذاء ذي لون أحمر قديم. تمسك شعرها الذهبي نحو الخلف بمنديل أسود. لم تنبس ببنت شفة.

كانت تجلس مباشرة على المقعد المقابل لي، لكنني كنت أسمع أنفاسها، أراقب أصابعها وهي تضع رأسها بين ركبتيها، بينما أسندتْ رجليها إلى حافة الكرسي. تبدو كطفلة صغيرة تستعطف أحدهم للحصول على دمية من الصوف أو قطعة حلوى...

لا أدري شيئًا عن القصة التي تحاول الفتاة سردها، مع حركة أصابعها المشوشة، ورأسها المتدلي فوق رقبتها النحيفة، كعنقود عنب يتمايل على رياح عاصفة هوجاء، لكنها من الأكيد

تبدو كغيرها من القصص السوداء التي سمعتها في الحانات أو المساجد بعيدًا عن صقيع ليالي البرد والبرق.

حاولتُ جاهدًا أن أستهلك شيئًا من وقتي الذي كان يمر ببطء رهيب والغوص قليلاً في الذاكرة الحية، لعلي أجد لها شبيهًا من النساء اللواتي التقيت بهن أو شاهدتهن في إحدى تلك الأمكنة المجهولة بالمغرب أو حتى في حلم سابق لي.
غير أنني كلما تذكرت امرأة من بنات بلدتي إلا ووجدت بينها وبينهن صفة واحدة مشتركة تكاد تكون يتيمة.

لقد كان حدسي يدفعني لأرَ دموع الألم المتحجرة بقلوبهن جميعًا، تلك الدموع الدامية التي تتحول إلى سيول جارية من الرغبات القوية في الحرية والإنعتاق من كل أشكال الدونية والمعاملة السيئة.

تعاطفت مع الجالسة أمامي دون أن أعرف شيئًا عن قصتها، فصيلة دمها أو حتى اسمها.
جعلتني حركاتها، ملامح وجهها الذائبة، خدودها المجروحة بسياط الحزن؛ جعلتني أعيش نوستالجيا السجون المظلمة في عز الظهيرة، تلك السجون اللا مرئية واللا محدودة، بأسقفها الإسمنتية وجدرانها الفولاذية.

إنها حقًا سجون شاسعة لا حدود لها، مهما ركضنا هربًا في اعتقاد واهم بأننا فعلاً سننتهي إلى الخلاص، إلا ونجد الجدران تبتعد، والممرات توصد الواحدة تلوى الأخرى.

لقد علمتني ظروفي القاسية، أن أقاتل في مكاني طواحين الهواء كل دقيقة، أن نصنع الأمجاد التي تشبه الخسارات، أن نستمر في الحياة بخطوات ثابتة، نشق بثقلنا أديم الأرض، ثم نعلن في أمسية شعرية بنادي بلدتنا المهجورة، انهيار الأسوار العالية وفك كل الأغلال المقيدة لأعناقنا.

علمتنا القسوة وسنوات جفاف الأرض، وذلك الأصفر الذابل الممتد فوق جلد البسيطة كبرص بدل الأشجار وموسيقى الماء؛ علمتنا أن نستيقظ كل صباح وجهًا لوجه أمام سماء سوداء وأفق مشنوق. لا شيء في الأفق سوى رقصات النسور، وهي تغني. تترقب متأهبة، لحظة انهيار الرمز. ذلك اللحم المتعفن ببكتيريا الطمع والنفاق، لتنبش الجسد وتترك الحياة لمن يستحقها. شأننا كمن يعيش في مسرحية وهو كله لذة بصراخ الدراما المتوحشة، المسجونة بأقفاصنا الصدرية..

إنني أرقص كديكة محاربة أو كديكة مذبوحة. أغني بصمتي ذلك اللحن الذي لم أسمعه من قبل.

ما زلتُ في كامل قدراتي على الكلام والثرثرة. فمي لم يجف من الريق بعد، علامة جيدة على استمرارية نبض الحياة في عروقي، رغم ما لحقني من تعب الجسد وشقاء الأنفاس. عيوني ما زالت محافظة على بريقها الحي، بعد وصولي إلى سدرة اليقين المطلق، في أنه لن يكون هنالك شيء يمكن أن يسجنني بعد الآن، أو يعكر هدوء روحي الناسكة، أكثر من صمت الأفكار، وشللها وغرقها أثناء السباحة في فضاء العقل، نهلت من شرفات المعرفة، والمحبة الموصولة...

إنني لا أجد معنى أو قيمة للأصفاد السميكة، وتلك الزنازين الباردة وصالات التعذيب السوداء بكل ما تحويه من جلادين ومصاصي دماء... نعم، لا أجد لذلك قيمة، أمام إيمان الفرد الراسخ في معبد الحرية المطلقة. غالبية المعتقلين ومسلوبي الحرية بقريتي، لم يروا السجون مرة في حياتهم، ولم تصفد أيديهم وأقدامهم السلاسل الطويلة، لكنها بالمقابل سجنتهم تلك الأسباب التي تدور في فلك ثقافة سوق القرية الأسبوعي، والنقص الحاد في جزيئات الحرية فوق هذه الجغرافيا الموبوءة...

صفدت أدمغتنا سلاسل وأقفال قادمة من أعماق التاريخ الصحراوي وقرون من ثنائي أكسيد كربون الأديان، حتى لاحت

بيوت العناكب فوق أفواهنا وتحت الطبقات الكلسية لدماغنا، فصارت الكلمة عندنا كفرًا، والنطق انتحارًا، والتفكير إعصارًا، والله سوطًا ملتهبًا ممتدًا فوق رؤوسنا كامتداد عصى الزيتون فوق رؤوس الصبية الصلعاء وهم جالسون على الحصير القاسي بكُتاب قريتي.

إننا كمن يمضي في حياة بئيسة يجر مشنقته، وهو يعلم أنه كلما خطى خطوة جديدة لربما سوف تكون الأخيرة، ليعلن بها نهاية سيرته الكافكاوية. رغم ذلك، إن أجسادنا المسجونة وقلوبنا المغلفة بالأشواك تواصل النبض وجر أطنان الذنوب والعقد والذكريات، حتى ترسم في النهاية صورة صنمية راكدة، نمنحها للعالم بعنوان بارز : سيرة أتعس السجناء.

تناديني إحدى العاملات بمركز اللاجئين.
تحمل بين يديها لوحة خشبية، وضعت فوقها مناشف وغطاء سرير وفرشاة أسنان وبعض لوازم الحمام.
تشير لي برأسها إلى المصعد الإلكتروني...
تقدمتُ نحوها مدفوعًا من الخلف بخراطيم الماء البارد، لا أدري لماذا تتواصل معي بلغة الصم ؟.. ما أتحدثه من الفرنسية كافٍ لكي أفهم ما تريده مني، ثم إنها لا تبدو سعيدة بعملها.

منذ أن وصلتُ إلى المركز وأنا ألمس فيها قلقًا مريبًا ونبرة قاسية، وهي تنظر لهؤلاء العرب الذين كلما مرَّت من أمامهم إلا ويبدؤون في الصفير والنباح.

لقد رأيتُ يومًا بعضهم وهم يتحرشون بها جنسيًا، بينما هي منحنية أمامهم على الأرض تنقل صناديق الخضر الفارغة خارج المبنى.

كانت هي الأخرى شابة، مربوعة القد، بمؤخرة بارزة وشعر قصير، كانت تفضل ارتداء السروايل الضيقة غير مبالية بوزنها الزائد للأرداف والخصر.

فيما بعد، نشأت بيننا علاقة صداقة دامت أربعة وعشرين ساعة الأخيرة من إقامتي بالمركز.

كانت العاملة الوحيدة التي تقترب مني سائلة عن أحوالي.

أما بقية العاملين دونما استثناء، كان عملهم بالمركز عبارة عن حالة من المرض المزمن... أشفقتُ على أوضاعهم الشاقة. وجدتها مهمة تفوق كل الصعوبات المتخيلة. كيف يستطيع إنسان أن يتواصل مع مهاجر سري وصل بالأمس إلى أوربا بعد أن عاش الموت وعاد منه، على متن قبور سائلة في أعالي البحر الأبيض المتوسط ؟

جميعًا، لا يزالون يعتقدون أنهم موتى، لم يبق بحياتهم أي معنى لما هو قيمي أو أخلاقي. لقد قتلت وأعدمت تلك المجازفة الخطرة من أجل الوصول إلى هذه النقطة من الأرض كل شيء جميل بداخلهم.

آه، كم سنة مرت من حياتهم وهم يعتقدون في ببلدانهم المحروقة، حفاة الأقدام، جوعى البطون أن فردوس الله على مقربة أميال بعد أمواج المتوسط..

لم أستطع أن أحبس دموعي.
بمجرد أن استقرت قدماي بداخل المصعد وبدأ الدفع الكهربائي في رفعنا نحو الأعلى حتى أجهشت بالبكاء، وبدأت سيول الدمع تنهمر من عيوني، أشعرتني تلك القطرات التي كانت تجف قبل أن تلتقي عند لحيتي بشيء من الأمان.

كانت هي تتجنب النظر إلى عيوني، رغم إحساسها بالألم الذي كان يبعث بنوع من الأسى وانعدام الأمل في الشفاء.

لقد تحول ذلك الفضاء الضيق إلى علبة معتمة مشحونة بأطنان من الحصى والأتربة الخانقة.

كانت تلك هي المرة الثانية التي سأجهش فيها باكيًا دون انحباس أو شعور عضوي بالألم.

ما ميَّز تلك اللحظات، هو أن بكائي تجرد من كل النزعات الآدمية المصطنعة، لقد شعرت بأنه نداء خالص من الذات، نادرًا ما يباغتني الدمع على غر غفلة، دون سابق إنذار.. دمع صاف، شفاف، ينهمر دون حاجة لريشة ملطخة بألوان زائفة...

هنالك غرف متقابلة على طول الممرات، أبواب حديدية ونوافذ عالية... كانت العاملة تمشي أمامي دون أن تلتفت نحوي، بينما كنت أسجل مع خطواتي معالم المكان. هنا، توجد الأدراج التي من خلالها سأنزل لقاعة المطعم.

ومن هنا، أستطيع ولوج الساحة لاستنشاق هواء نقي خالٍ من غبار الأحذية.

أما هناك، فيجب أن أنتظر أمام هذه السبورة كل مساء، بعد الساعة الثامنة ليلاً، لأراجع الأرقام المحظوظة التي سيتم تنقيلها إلى وجهة ثانية.

في نهاية كل ممر تجد أمامك أكوامًا من الأجساد تتخذ من صناديق القمامة كراسي لها، حيث يدخنون بسرية تامة، لأن التدخين ممنوع في الداخل كُليًا.

يتبادلون سرد القصص، وفنتازيا الأحلام، ثم يخلدون للنوم أو العراك بعد أن يمل بعضهم النظر للآخر، فيما يصمد آخرون مرابطين على حالهم خارج الأفرشة مع لسعات البرد، يتحينون الفرصة لسرقة ما نشله اللصوص المحترفون من محلات لوزان نهارًا.

أذكر صراخ أحد الأفارقة الغاضب كل صباح، كلما سُرق منه شيء بنبرة صوته الجارحة، المبللة باللعاب :
- إن الآلهة تغضب حينما يسرق لصٌ لصًا آخر.

كانت الغرفة التي قضيت بها أسبوعًا وأربعة أيام مكونة من اثني عشر سرير.
فوق كل سرير يوجد سرير آخر. في وقت الاكتظاظ، وعند عدم توفر أسرة شاغرة بسبب موجات اللاجئين التي قدمت من تونس بعد هروب بن علي إلى السعودية، كان يُطلب منا ترتيب ألواح خشبية بين الأسرة حتى نحصل على مساحة إضافية لأرطال اللحم المتحركة.

كانت رائحة الغرف مقرفة لدرجة لا تطاق، وكان ذلك سببًا كافيًا لمشاحنات كلامية لا تنتهي.. في غالب الأحيان، تتحول إلى

صراخ عالٍ وعراك بالأيدي والكراسي بين الأفارقة السود والقادمين من شمال إفريقيا والشرق الأوسط.

التونسيون كانوا على اعتقاد أشبه باليقين بأن سبب الروائح الكريهة هم الأفارقة، فهم غير مسلمين ولا ينظفون أجسادهم.

أما الأفارقة، فقد كانوا يطلبون من الجميع ترك الأحذية خارج الغرف عوض الاحتفاظ بها تحت الأسرة أو تركها معلقة على نوافذ التهوية كما يفعل العرب.

أما أنا، بين الروائح الكريهة والأصوات العالية، كنت أضع وسادتي على وجهي، وأضغطها من فوق ببعض الملابس الشتوية حتى أحول دون روائح التخلف والمرض.

كانت أيضًا الكثير من السلوكات غريبة وشاذة. سلوكات جعلتني ألعن اليوم الذي قررت أن أكون فيه لاجئًا.

أنا أعتبر النظافة من أقدس القيم التي من المستحيل أن أضعها جانبًا. مع ذلك، في كل صباح حينما استيقظ من النوم، كنت أجد آثار مَنِي يابس على فراشي.
بحثت طويلاً عن المني ببنطالي فلم أجده.
تضاعفت شكوكي. كبر الاعتقاد في البدء أن أحدهم ربما حاول اغتصابي.

في مثل هكذا غابة، كل شيء متوقع.
منذ قدمت إلى هنا، وأنا أتعرض للكثير من المضايقات والتحرش الجنسي... ربما شعري الطويل سببها.

أحدهم ذات مرة سألني :
- هل أنت مثلي؟ أنا لست مثليًا، لكنني لن أمانع إذا طلب مني مثلي أن أمارس معه الجنس.

اكتشفت فيما بعد، حينما قررت أن لا أنام، أن الجزائري الذي كان ينام على السرير العلوي يقوم بالاستمناء بعد أن يشعر بأن الجميع نيام، وهو يشاهد بعض الفيديوهات البرونوغرافية على جهازه الآي بود.
لكن الحقير لا يقوم بقتل أطفاله على سريره أو ملابسه أو أي خرقة ثوب.
كان يميل بكل جسده جانبًا، مطلاً برأس قضيبه إلى أسفل، ثم يطلق بعض التنهيدات ويترك منيه يتطاير.
جزء منه على فراشي وجزء آخر على الأرضية.

تحملت الوضع ولم أستطع الكلام. اعتبرت صمتي حينها، هروبًا من ما يمكن أن يكون أسوأ.

تعرفت هنالك على أسماء كثيرة.
منذ البداية أحسستُ أن شيئًا يدفعني لتجنب الحديث أو مشاركة القادمين من شمال أفريقيا، الناطقين بالحرف العربي دردشاتهم. كانوا يتحدثون بنرفزة وعبارات لم أعتد سماعها من قبل.

لست من دعاة الأخلاقية اللغوية، لكنني كنت أستاء كلما ترددت على مسامعي كلمة : زبي. الكلمة التي تعني قضيبي.
كانت الكلمة المفتاح التي تمكن سارق السمع من معرفة أن الجماعة عرب.
وإن كان لا يسمع أحيانًا الدردشات بوضوح. تتردد كلمة زبي أكثر من ثلاث مرات في الجملة الواحدة. مع جميع أنواع المزاح، في كل السياقات الكلامية.

بعد شهور، تعرفتُ على صديقة سويسرية طلبتْ مني أن أساعدها على دراسة اللغة العربية.
اخترتُ أن يكون الدرس الأول النقاط والشكل.
بدأت أشرح الفرق بين كلمتي زبي وربي. أوضحت أن نقطة واحدة قادرة أن تجعل من الزب ربًّا.

تغير الوضع بعد اليومين الأولين من إقامتي بالمركز، حينما تعرفت على شاب مغربي، اقترح علي أن نكون أصدقاء. لم

أستطع، كما لم يكن من اللياقة أن أرفض الحديث إليه. جل النزلاء متوحدون في جماعات صغيرة، كل مع أبناء الجنس واللهجة، هنا البيض، السود هناك، العرب. العجم. والغجر في أقصى الركن حول طاولة أخرى...

تضامنٌ وراءه نزعة الانتماء مرة أخرى، نفس النزعة التي كرهتُ منذ زمن طويل حبسها في إطار مجموعات غبية متجاوزة.. عندما كنت قد أعلنت فراري من قيود الانتماء الضيق، وعناق الإنسان دونما حدود للحرية والإبداع والإيمان بالذات...

الآن. ها أنا ذا. مضطر للاعتراف..
وإن كنت لا أدري كيف ولماذا، هذه الرغبة في الحديث إلى هذا المغربي... طبعًا ليست الغربة أو الحنين للوطن، فما أزال حديث الإقامة بالبلد.
ربما أشعر بالحاجة للأمان، هذا الإحساس الغادر. لا أدري كيف أتخلص من لعنته. كل ما أتمناه أن لا يمنعني الضعف من الذوبان في هذا العالم الجديد، المجتمع اللغز، الذي أجهل كل شيء عنه تقريبًا.
إنني مستعد لكل شيء مقابل الاندماج، كل شيء... ما عدا أن أبيع كرامتي وإنسانيتي.

فعلاً، لا أنكر حضور الانتماء المرضي نحو مجتمعي السابق. قد يحتاج إلى وقت طويل كي أعدمه.

أدرك بوعي، حقيقة المرض والعفن الذي يعيش داخلي.

هنالك أشياء كثيرة كرهتها في بيئتي الأصلية، جعلتني أعيش كوابيس اليقظة.

لكن، سوف يكون من المجحف أن أنكر تلك القيم التي جعلتني أن أكون قاسم. قاسم الممتلئ بالحب والرغبة في الحياة.

ما يعيق المهاجر هنا، ليس الجهل باللغة البلد أو الحرمان من العيش الكريم.

قوة الدول هنا تُقاس بقوة أبسط مواطنيها.

لا وجود لقوانين خاصة بالمهاجرين دون غيرهم.

بل حتى طالبي اللجوء، توفر لهم الحكومة ملاجئ السكن والغذاء والتأمين الطبي ونقود الجيب من أجل السجائر التي يقطعونها من أموال دافعي الضرائب...

لكن المشكل الخطير، هو حضور الرسوبات الثقافية والدينية السلبية، الرسوبات التي يصعب علاجها. كل مهاجر يحمل معه الكثير من القيم الماضوية التي يتعايش معها كمسلمات وحقائق مطلقة.

النظرة للمرأة.

للحب.

للأديان والمعتقدات الأخرى.

للمثليين.

للحرية.

علامات استفهام هائلة تجعله غير قادر على العيش في البيئة الجديدة، على التكيف، على الصداقة ومحبة الآخرين.

قد دفعه سوء الفهم للحياة إلى حافة الانطواء والخروج عن قواعد المجتمع.

ثم البحث عن أجوبة تحت التراب، بعيدًا عن الواقع وألوانه.

هنالك رهاب مرضي من السؤال. لقد تعود العقل على الاستقبال والإيمان الجاهز، منذ كان طفلاً. لم يسمحوا له، ولو لمرة واحدة أن يسأل كيف ولماذا؟ حينما تجرأ ذات يوم، وحاول كسر القاعدة، ليضع علامات استفهام في نهاية الجمل، وجد أستاذ الدين بالمدرسة أو خطيب المسجد يحذره من خطيئة السؤال في ما لا يعلمه. مبررًا ذلك بالآية القرآنية: (لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ).

يا لها من أسئلة. فالحقيقة لا تكون دائمًا مفرحة.
كم من حقيقة أوصلت صاحبها للجنون أو الانتحار.
أن تعيش حياتك كلها وأنت تقدس وهمًا، أن تتعايش مع صور مزيفة وأنت تنظر إليها كلوحات تاريخية تساوي ملايين الدولارات...

وضعتُ حقيبتي تحت السرير.
تمددتُ قليلاً لأستريح. وقفتْ العاملة عند رأسي، من دون مقدمات،بدأتْ الحديث موضحة لي بعض القوانين التي تخص المركز. فيما بعد، وجدت أنها متجاوزة عند معظم النزلاء... مثلاً: الوقت المحدد للوجبات، وقت النوم حين تنطفئ الإنارة تلقائيا عند العاشرة ليلاً. أيضًا يوم الغسيل الأسبوعي. ولكي تستعمل آلة الغسيل، من الضروري التطوع للعمل بالمطبخ أو الغابة، بالإضافة للواجب الإلزامي في المساعدة على تنظيف المراحيض والأرضية مرة كل أسبوعين على الأقل...

أما عن القوانين الأخرى، أخبرتني أنهم سيعرضونها علي حينما ينقلونني لأخذ البصمات ولقاحات ضد بعض الأمراض.

كانت الساعة تقترب من السابعة مساء.
طلبوا مني الإسراع في وضع أغراضي والالتحاق بصالة الأكل.
وجدتُ أمامي طابورًا طويلاً حيث يقف عشرات طالبي اللجوء.

تقدمتُ الأدراج. وقفتُ إلى مؤخرة الصف، كنتُ آخر من يلتحق.
أخذتُ صحنًا، وضعوا لي فيه القليل من المعكرونة بمرق الدجاج وقطعة خبز.

جلستُ إلى مجموعة من طالبي اللجوء.. كانوا قادمين من أوربا الشرقية، والإتحاد السوفييتي الميت.

سألني أحدهم :

- ما اسمك؟ ما جنسيتك؟

آخر يسأل أيضًا :

- كيف وصلت هنا؟

قال ثالث :

- أحقًا أنت مغربي؟ تبدو مختلفًا كثيرًا عن سكان شمال إفريقيا الذين نقابلهم هنا..

ابتسمتُ قائلاً :

- ربما لأنني مغربي بجلد أمازيغي.

كنتُ متأكدًا أنه لم يفهم قصدي. لكنه حرَّك رأسه واستدار إلى شماله، وبدأ يحدث صديقه بلغة لم أفهمها...
إلى أن غادرنا الصالة.

اليوم، أنا على موعد مع الطبيب. سأجتاز كشفًا طبيًا كاملاً، سيطعمونني ضد بعض الأمراض. كنا ستة في قاعة الانتظار. شاب تونسي وأربعة نيجيريين، كلَّمني التونسي قائلاً:
ـ أنا أعرفك.

أجبته متظاهرًا بثقة زائدة في النفس :
ـ هذا مستحيل، أنا لا أعرف أحدًا هنا.

قاطعني :
ـ أعرف انك لا تعرفني، لكنني أعرف من تكون، أعرف قصتك، شاهدت لك الفيديوهات على الفايسبوك، أي نوع من البشر أنت؟ ألا تستحي مما فعلته ضد الله والمسلمين.

لم أستطع الرد، بدأت أتلعثم، والحروف خارجة من فمي تتناثر هنا وهناك... تأكدتُ بشكل لا يدع مجالاً للشك بأن الرجل يعي ويعرف جيدًا عما يتحدث...

قال :

- يقولون إنك يهودي وتتلقى دعمًا من الصهاينة، نهايتك ستكون قريبة...

فُتح باب الطبيب. نادانى.
ترامت خطواتي في كل المسارات.
بدوت كمن يعاني من دوار شديد بسبب الإفراط في الشرب أو أعاني من إعاقة حركية تفقدني التوازن في مشيتي.
كنت شارد الذهن. مشتت التفكير. بالكاد، أسمع تعليمات وأسئلة الطبيب. راودتني كوابيس ومخاوف تهاوت على رأسي وقلبي كمطر غزير في ليلة عاصفة هوجاء، رحتُ أتساءل :
- ماذا لو أخبر هذا الشاب بقية النزلاء بالمركز عن حقيقتي؟ هل سيصدقونه؟ وإن فعلوا، كيف يكون رد فعلهم نحوي؟ هل هربت من الموت لأجده أمامي هنا ؟ وأين... سويسرا ؟

حقا. إنها التراجيديا. لكنني أكره لعب الأدوار المأساوية، أكره أن أكون البطل الذي يضع رأسه تحت المقصلة كي يصنع الفرجة لغيره. إنني أحب الحياة، أعشقها، مستعد لخوض أية تجربة أو مغامرة مهما كانت خطرة، مقابل استمرار النبض بداخلي، أريد أن أدون حضوري، وأضع بصمتي هنا، قبل أن

يأتي الموت. لا أريد أن أموت مقتولاً بخنجر مسموم أو رصاصة صامتة... أريد أن أموت كما يموت الجميع.
إنني أدرك أن الموت قد يكون بديلاً للحياة، لمن سئموا طول ليلهم الأسود.
لا أنكر. بل أعترف أمام الجميع، كان الانتحار في يوم من الأيام أحد اختياراتي البطولية، بل إن فكرته كانت تسيطر علي وتلبسني، تهيمن بكل ثقلها على أحاسيسي.
لكنني لم أجد لذة في ذلك. لم أمتلك الجرأة الكافية كي أعود بخطوات خلفية إلى العدم، إلى نقطة الصفر، بعد أن قطعت كل هذه الأميال من الحياة.

بعد الانتهاء من الكشف واللقاحات اللازمة، طلب مني الطبيب الجلوس إلى جهاز حاسوب كي أختار اللغة التي أتقنها، وذلك لمشاهدة شريط فيديو يوضح كيفية انتقال عدوى فقدان المناعة المكتسبة وسبل الوقاية من الفيروس.
لما هممت بمغادرة الحجرة، كانت عند الباب علبة ممتلئة بالعوازل الطبية الملونة. حاولت تجاهلها، كان الجنس آخر ما يمكن أن أفكر فيه وقتها. لكن الطبيب طلب مني بإلحاح أخذ بعضها قائلاً :

- سيدي، إنها ضرورية جدًا، لا تتردد. خذها للحاجة.

أخذت يومها أربعة عوازل.

كنت كل مرة، في وقت الفراغ وانحسار الكلام خارج مجرة المعاني، أقوم بإخراج الأكياس المطاطية الشفافة من جيبي، مع حملقات شريرة تحيط بزوايا تلك المربعات الصغيرة اللامعة.

أرفعها لأعلى ثم أسقطها على السرير، وأنا أتسائل عن اليوم الذي سأستعملها فيه. كيف سيتم ذلك ؟ ومع من ؟

بعد شهر، أحسستُ بمغص شديد، وأدركت أن ممارسة الحب مع الشقروات ليست بنفس المرايا والحيل القديمة كما هي هناك في الشرق، هنالك طقوس شيطانية لا يمكنني ممارستها الآن.

غلبني اليأس.

وغمر قلبي الألم.

راح خيالي يندب المصير التعس.

ذات ليلة، بعد جو من الابتذال ومناجاة الروح بالخلوة في المرحاض وممارسة العادة السرية، تذكرت لحظتها كل المراحيض التي احتضنت حريتي بعيدًا عن عيون المسدسات والأعين القاتلة، فقط لأحتمي من الشر، لأتناول وجبة طعام في رمضان، أن تتناول طعامك سرًا، وأنت محاط بأربعة جدران لا

تفصل بينها إلا مساحة ما بين الركبتين والظهر في وضعية الجلوس. إنها جدران المرحاض الذي لطالما ارتدته لقضاء حاجتي وطرح فضلاتي.

لقد كنتُ أقضي كل يوم حوالي ساعة من الزمن في هذا المرحاض، من أجل غذاء لجسدي بفتات بقايا طعام مائدة السحور. وضعية صعبة جدًا، لكنها أفضل بكثير من قضاء اليوم في صراع معركة الأمعاء الفارغة. لا أستطيع الأكل علنًا، لا يمكنك أن تتصور ماذا يمكن أن يحصل لي إن أقدمت على ذلك... سوف يطردونني من الأسرة لأنهم سيعتبرونني عاقًا وكافرًا. سيتم القذف بي من كل الحياة.

زملائي في المدرسة سوف يرفضون مخالطتي. حتى أساتذتي، لن يكفوا عن شتمي وتوبيخي، السياسة أيضًا ستقف ضدي... ولن تعترف بحقي في أن أكون، ستنزع مني بطاقة الهوية وشهادة الميلاد، وتزج بي في سجن الأخلاق تحت جريمة المس بالمقدسات...

سيصدر شيخ مشرقي سلفي فتوى تهدر دمي...

في نهاية المطاف سأعدم رجمًا بدعوى الردة عن الدين...

نفس المرحاض اليوم، ونفس تراجيديا الماضي تحضرني، لكنني الآن في مهمة تختلط فيها اللذة بالألم. العادة السرية. هي في حقيقة الأمر تعبير لا إرادي عن حرمان وكبت عانيته، ومازلتُ أعانيه.

• • • •

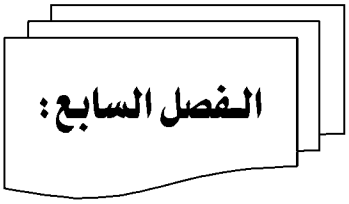

الـملاك الأزرق : لـورينـا

قسوة الأنفاس تقطع سكون الحجرة... يتجدد القسم على الذات، وتعود المفاهيم خائبة مهزومة فاقدة لما تبقى من المعنى...

وسط الفراغ، تظهر كآبة الكلمات بحروف مبعثرة. نستنشق معًا نفس الهواء بعد أن تمتزج جزيئاته المحملة بثنائي أكسيد الكربون مع كل زفير وشهيق. يلمسني ظلها برؤوس أصابعه الحريرية، يخترقني.

يتقاذفني.

يستولي على ما تبقى من كياني.

تستمر لعبة الظلال في المبارزة.

في الانقباض والانبساط لساعات طويلة خارج الزمن.

عقاربها شحنات كهربائية تتنفس الضوء المنبعث من داخلنا.

يشتد التيار بالعروق المتورمة، تهرب من فمنا الكلمات.

ينام اللسان. ويتدلى خارجًا في انكسار، مشلولاً، منكوسًا إلى أسفل حيث تنتهي حكاية القبل..

ينساب مني ثعبان... أقرع، أعور، أعوج، أملس... مقطوع الرأس، لم تنل من روحه جريمة القطع يوم كان صبيًا.

لذلك، هو اليوم ثائر. ربما انتقامًا، ينظر لي بعينه الوحيدة المتحدية لكل الشرق. ثم يذرف دمعة، دمعتين، فثلاث.

تتشربها أوردته، ويلطف بها جو غضبه الحار، بينما هي في انزلاق بطيء.

لقد خاض أيضًا معارك قوية، كانت سقيمة، مميتة، مفقدة للمناعة. تعلم دروسًا كثيرة، قبل المجازفة بخوض أية معركة لزجة.

لا يتردد في لبس أقنعة الغاز المطاطية التي يحصل عليها من إحدى الصيدليات المنتشرة بأرصفة شوارع زيورخ المريضة بالربو أو شبابيك الوقاية المعلقة بمراحيض باراتها...

لم تنتظر سقوط ضوء القمر على السرير.
هاجمتني هذه المرة، ونحن في قلب الظلمة، بقبلات عشوائية متوحشة، كأنها حيوان عطشان.
بللت عنقي بلعابها اللذيذ وهي تلعق من مستنقعات الجسد.
ثم وقفت مترنحة في ثبات، تنظر من نافذة الغرفة قائلة بصوت رخيم :

- نهر زيورخ تجمد.

انظر.

لقد غابت روحي في السيول

واعترت قلبه الوحدة،

لكنك أنت

أنت وحدك

القادر على إعادة البسمة لجداوله..

رسم ابتسامته بريشتك الساحرة،

أنظر،

أيها المنقذ اغطس بداخلي

لعل معاولك تكسر جليده، تحرك.

تحرك أيها القادم من بعيد أرني شيئًا

من ثورة الربيع.

نعم. إنها حبيبتي لورينا. الجميلة الفاتنة. فتاة ذكية ومدهشة. أميرة في فستان أسود، تحمل بيدها سلة من الورود البيضاء.

أول مرة قابلتها، كنت برفقة صديقتي نيينا التي تعرفت إليها حينما قدمت إلى محاضرة ألقيتها بجامعة زيوريخ عن الربيع العربي وحرية الضمير. بدت لي نينا في أول لقاء جمعنا، كأية فتاة شقراء، تدخن بشراهة. كان هذا كافيًا لأقول لنفسي :

ـ تبًا، إنها مجرد فتاة أوربية عادية. لا شيء مميز هنا.

لكن، بعد أن تحدثنا كثيرًا وفاجأتني وهي تنطق جملاً باللغة العربية، عرفت أنها مرَّت بتجارب كثيرة في الشرق، كانت تتحدث اللهجة التونسية بطلاقة وتعرف بعض المفردات باللهجة المغربية أيضًا.

أخبرتني عن طليقها التونسي وصديقها السابق المغربي وعشيقها السري السويسري.

كانت تشعر بانجذاب لا يقاوم إلى الرجل العربي أو بشكل دقيق، القادم من الشمال إفريقي بشكل عام. ربما كانت تعجبها لحيته وشاربه الطويلين.

لكنها دائمًا ما كانت تجد صعوبات كثيرة في ربط علاقة ناجحة مع أحدهم.

هم كلهم سواء، ولا يحترمون المرأة. يقولون لك إنهم ضد من يعامل المرأة كشيء، ثم يصدمونك بسلوكهم السيئ، ومعاملتهم الحاطة من كرامة المرأة والجارحة لمشاعرها..

هكذا كانت تصف لي الرجل المشرقي، كلما تحدثنا عن حقوق المرأة بالعالم العربي والإسلامي.

لم تخف إعجابها بجرأتي.

أخبرتني أنه وبالرغم من سفرها المتكرر لشمال إفريقيا وعملها كمرشدة للسياحة الثقافية بالمغرب وتونس، فقد كنتُ أنا الشخص المفاجئ الذي لم تقابله من قبل، إذ أنها لم تصدق أنه من الممكن أن تجد ملحدًا من دول شمال إفريقيا يحكي عن تجربته مع الاضطهاد الديني بشجاعة، ويعبِّر من خلال كتاباته عن آرائه من الإسلام. كتابات تعتبر كفرًا فاضحًا مُبينًا.

بعد لقاءات كثيرة مع نيينا وأصدقاء آخرين، مرة من أجل السباحة بالبحيرة، وأحيانًا لشرب بعض الجعة أو المشروبات المحرمة بأحد الحانات، توطدت علاقتنا بشكل لم أكن لأتصوره.

اكتشفتُ لأول مرة في حياتي، المعنى الحقيقي للصداقة والإخلاص والتضامن. أما اليوم وأنا اكتب هذه الأسطر، أجد نفسي ممددًا على سرير نيينا ببيتها...

المكان الذي اتخذته ملجأ وذرعًا يحميني من الضباع والكلاب المسعورة، بعد أن بات عنواني معروفًا لدى أعضاء جمعية إسلامية سلفية هنا بسويسرا، ليس ذلك وحسب. بل حتى شريكي بالشقة، الشاب الأفغاني الذي قدم إلى هنا يطلب الحماية

من سويسرا، بات هو الآخر يهددني بالقتل، بعد أن اكتشف أنني ملحد، وأمارس أنشطة أفضح فيها خبث الإسلاميين وثعابينهم وجحورهم وقتامة مشاريعهم السياسية والاجتماعية.

لقد بلغت عن هذا الإرهابي مكتب الهجرة السويسري. لكنني مازلتُ أنتظر قرار تنقيلي إلى عنوان آخر. كما قمتُ برفع دعوى قضائية ضده وضد إحدى أعضاء هذه الجمعية الإسلامية الشريرة... فتاة هددتني أيضًا بالقتل عبر الفايسبوك...

أعجب لحال كل هؤلاء المهاجرين وطالبي اللجوء الذين يأتون إلى سويسرا طالبين للحماية والمساعدات الاجتماعية، من مسكن وتطبيب وصحة وتعليم... ثم يتحولون إلى مجرمين وإرهابيين محملين بالحقد والكراهية ضد غير المسلمين. وأعجب أكثر من أحزاب اليسار السويسري والغربي بشكل عام، حينما تعتبر نداءاتنا الإنسانية التي تحذر من خطرهم على الحرية والتعايش السلمي بالإسلاموفوبيا ومعاداة المهاجرين.

هذا الاتهام بالإسلاموفوبيا، أكثر من يستعمله هم المسلمون أنفسهم، ضد الأصوات التي تندد وتشجب بعض سلوكاتهم التي تتعارض مع كل أدبيات ثقافة حقوق الإنسان وحريات الأفراد، وخصوصا أصحاب الفهم المتطرف أو هؤلاء الأكثر التزامًا بتعاليم الدين.

نعم. نينا يعود لها الفضل في لقائي بحبيبة روحي لورينا، اللقاء الذي حمل معه الكثير من المعاني الجديدة، والأحاسيس الجميلة التي لم أتذوقها من قبل...

في ذلك اليوم، كنت بمدينة لوزرن، بمنزل صديقي كريم السويسري من أصل تونسي. اعتبرته - ولا زلت- جندي الخفاء الذي كان يقف بجانبي حينما يتعكر صفو مزاجي بالغيوم المكهربة، وتوصد كل الأبواب في وجهي، وتتجمد جدران حجراتي، فلا أجد السكينة والهدوء والعون إلا رفقته..

عدتُ يومها إلى زيورخ لأقابل نيينا ومعها لورينا، ذهبنا إلى أحد البارات بالمدينة، كانت نيينا تحدثنا عن سفرها الأخير إلى تونس، تحكي عن البلاد وما تغير بها بعد الثورة. عن السياحة والأسعار. عن طباع الناس، قالت إن كل شخص تقابله لا بد وأن يمطرها بوابل من الأسئلة. ما يشعرها وكأنها بأحد مخافر الشرطة. كنت أتحدث، وما إن تصمت نيينا حتى أبدأ في الحديث من جديد. لورينا كانت صامتة، بالكاد تشاركنا الحديث، أو تكتفي بنطق بعض الكلمات : حقًا، كيف، لماذا..

كنتُ أحتكر كل الكلام، أجيب على كل سؤال، وأعلق على كل كلمة..

ثم تحدثنا عن مصر والأهرامات وسيد الخواتم.. وبينما لورينا تتحدث عن عملها بالأركيولوجيا وحبها لهذا العالم، وكم ترغب في زيارة الأهرامات، أخبرتها بأن الحضارة بالنسبة لي تعني العبودية. خصوصًا حينما يتعلق الأمر بالمعمار، ثم سألتها:

- هل تعلمين كم من العبيد تم قتلهم من أجل أن يشيد الفراعنة شيئًا نقف أمامه اليوم بإعجاب ونسميه بالأهرامات؟

ردَّت علي بهدوء :

- لا. يا قاسم، أنت مخطئ تمامًا. الأهرامات لا علاقة لها بالعبيد فقط. نعم أفهم ما تصبو إليه لكن لا يجب أن ننظر للموضوع من ناحية واحدة. لقد..

لم أتركها لتكمل حديثها وقاطعتها :

- لا. إنكِ مخطئة، لقد بنيت على عظام الآلاف من العبيد..

بلعتْ لسانها، وأقسمت أن لا تتكلم بعدها، ثم بدأت تحملق بعينيها إلى كوب القهوة الفارغ الذي كانت تمسكه بقوة...

غادرتنا نيينا إلى المرحاض وبقينا بمفردنا، حاولت أن أكسر ذلك الصمت الذي كان يطرد الألوان البهية من حضرتنا، بادرت بسؤالها :

- لورينا، هل لكِ أي اهتمامات بالأدب ؟

إنها لا تريد الحديث معي، ولا حتى النظر إلى وجهي. جعلتني أشك وأسأل السؤال الديكارتي المؤرق: هل أنا موجود؟

وقفتْ بعنف إلى أن كاد كرسيها يقع.نزعتْ سترتي عن كتفيها، ورمت بها على الطاولة. ثم ركضتْ مسرعة مغادرة فناء الحانة...

كان مشهدا دراميًا كالذي نعيشه مع المسلسلات الروائية الطويلة، حينما تهرب الحبيبة عن حبيبها، ترمي بقلبه إلى قاع البئر، وتكسر كل الصور الجميلة على مقبرة الذاكرة، لا يبقى أمامها إلا رغبة في الرحيل...

لكن لورينا، ولنقل في حالتي أنا، كانت كمن يهرب من الواقع إلى الخيال، من الجزء إلى الكل، من الليل إلى النهار...

أحسستُ بها، وهي في حركتها المسرعة تغادر الحانة، كمن يزحف نحوي متوسلاً النجدة، لا أدري كيف ولماذا..

غير أن هنالك سحرًا خفيًا جعلها تحتل قلبي وتشيد بداخله قصورًا وقلاعًا عالية لتحتمي بداخلها، ربما هو سحر عينيها الخضراوتين، أو سحر الحب...

وإن كنت مرارًا أضحك بنبرة مستهزئة من أصدقائي، حينما يبوحون لي بأسرار الحب الخرافي. الحب الذي يحدث مع أول

نظرة، لمسة، جلسة... كنت أقول لهم، إن الحب ليس سحرًا يقع هكذا وفقط. لا يحدث فجأة كالحلم. لكنه حياة من التجارب وميل مشترك لواقع من الأحداث والاهتمامات المشتركة. إنه اللوحة الفنية الثمينة التي أكلت الجرذان جزءًا منها، في حضور ذلك الشخص في حياتنا، عادت اللوحة كما كانت أول مرة، إننا نبحث عن الطرف المفقود منا، نحاول ردع تلك الرضوض التي طالت القلب وخيط جراحه العميقة، إنه طرف خاص وناذر. لا يمكن أن يعوض بأي كان. لذلك، من الصعب، ولربما، البلاهة أيضًا أن نقول إن الحب يقع هكذا وفقط.

لقد ألهم الحب الكثيرين، كان مصدرًا للإبداع الأدبي والفني، مصدرًا للجنون والألم الأخضر. كثيرون هم الذين لمسوا تلك الأساطير التي جعلت من الحب مقياس كل شيء والقانون اللانهائي، رفعت من شأنه إلى أن صار في حد ذاته لغة يتحدثها العشاق عبر همسات الأنفاس، العيون والقلوب..

لقد تغنى دانتي بحب بياتريشتي في الكوميديا الإلهية، وتغنى شكسبير بعطيل لديدمونة، وحب روميو لجولييت، وحتى جوته والشيطان... إنني الآن مقتنع إلى حد اليقين، أنه في الحب فقط، تتحول الأسطورة إلى حقيقة، والحقيقة إلى خيال.

أمضيتُ تلك الليلة بصحبة حاسوبي وبضع قنينات من الجعة.
أنفخ في هواء حجرتي شيئًا من دخان السجائر، أشكلها كنهايات للكلمات وحدود للكون، فكرت في أخذ ورقة وقلم لأحاول كتابة شيء مما أشعر به، لكنني وعلى غير عادتي، فكرت أن هذه الكلمات ينبغي أن لا تموت على الورقة، إنني أخاف منها، هي الأخرى، أن تهرب وتتركني وحيدًا.
أفضل سجنها تحت لساني خوفًا من أن تفقد معانيها أو تضيع طريقها في الزحام وضيق الأفق، إنني أرى ظلالها تلامس سقف حجرتي مع الدخان ثم تنتهي، تسبح بحرية ثم تعود من جديد لتستقر تحت لساني، حيث لا أحد يستطيع فك رموزها أو النظر لوجوهها الخجولة.

قابلتُ لورينا مرات كثيرة بعد ذلك، عشت معها لحظات من الفرحة والألم، شربنا من النبيذ حتى السكر، ورقصنا بأجسادنا العارية فوق سريرها لساعات طويلة، جلسنا في أماكن مختلفة، ومارسنا الحب بأشكال عديدة مع إيقاعات الألحان الحزينة.
وبعد كل ذلك، اعتقدنا أن حبنا قد أصبح عقدًا مسجلاً على شفاهنا باعتراف عاطفي متبادل، لكننا ما زلنا ننظر للأفق بقلق،

ونتساءل عن معنى الرقص في حفل القران ما دمنا نسمع سمفونية الجراح والدموع الأزلية بداخلنا...

إن الحب والفرحة وكل بسمة تولد، هي صيرورة لحلقة من المعاناة، وما إن تنته حتى تعود من جديد تحبو فوق أرواحنا السوداء.

آه لورينا، كم أحبك.

• • • •

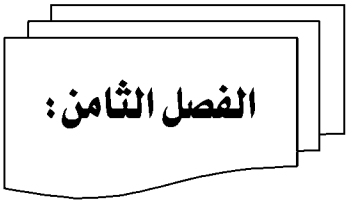

بين سويسرا و سجن النوستالجيا

الأوطان شيء رمزي، داخلي لا علاقة له بالجغرافيا.
قد يكون وطنك الرمزي مختلف تمامًا عن وطنك الجغرافي
كلنا نعيش في أوطان جغرافية فقط، لم نتحرر بعد حتى نعيش في الوطن الرمزي الذي نستحقه ويستحقنا.

وطنك بين ضلوعك
لا تصدق الجغرافيا
ولا تصدق التاريخ.
أينما وجدت ضيقًا فارحل.
وأينما وجدت الراحة فأقم.

للأسف، نلجأ لخلق أوطان افتراضية نعيشها. لكنها ما تلبث أن تتبدد كالغيوم. ويضربنا صخر الواقع الكئيب.
أحمل وطني، وأنتظر يومًا يحملني وطني.

إنني الآن بسويسرا...
البلد الذي لم يخطر ببالي أن أعيش به، أو تطأ قدماي ترابه في تجربة حلم. ما زلت أنتظر أوراق إقامتي. الوجوه التي أقابلها اليوم بالشارع، وفي كل مكان، مختلفة تمامًا عني وعن ذاكرتي. ما عدا الشباب الذين أقضي معهم معظم وقتي بمأوى اللاجئين.

قصصهم أيضًا لا تختلف عن بعضها. فهنالك من فرَّ من السجن بعد ثورة الياسمين بتونس، أو من سنحت له الفرصة بغياب الرقابة على الحدود البحرية في لحظة من الفوضى للعبور إلى الضفة الأخرى. هنالك أيضًا من قضى سنوات عمره الأخيرة متنقلاً من بلد أوربي لآخر دون أن يحصل على جواز سفر أو وثائق إقامة تخول له زيارة موطنه الأصلي من وقت لآخر.

هم غرباء جدًا. وغرابتهم تكمن بشكل كبير في سلوكهم. ربما تقول إنهم مهاجرون غير شرعيين أو وافدون أبرياء على مجتمعات غنية، يطمحون إلى تحسين ظروف العيش وإعانة أسرهم المكلومة بعناء الفقر والتهميش. لذلك هم لصوص ومجرمون...

يبدو هذا المنطق غبيًا جدًا لتبرير فعل إجرامي كالسرقة. لكن.. قد يجده البعض جوابًا لسؤال سبَّب الكثير من حالات الأرق للعقل العربي والإسلامي، لماذا نفر نحن من بلداننا لنعيش كلصوص ومجرمين ببلدانهم؟

وكأن بلداننا لم تعد فيها فرص للحياة، بعد أن انعدمت بها فرص العيش على الهامش، ولم تعد هنالك أية إمكانية بسيطة لسرقة متجر، أو البحث عن مساحة للعيش خارج القانون كما يحصل هنا ببلاد الكفر...

لم يبق أمام هؤلاء الشباب سوى تراجيديا الألم، وحلم في الانتحار على المقابر السائلة بأعالي البحار، طمعًا في وصول للضفة الأخرى حيث يعيش الإنسان. إنه الانتحار الذي يعوض قيمة الحياة بقسوة المجازفة وخطورة التجربة.

يبقى السؤال الأساسي :

- لماذا تنتخبون حركات الإسلام السياسي، ثم تنتحرون في أعالي البحر الأبيض المتوسط من أجل أمل العيش بالمجتمعات الكافرة؟ بربكم.. أجيبوني.

بعض المهاجرين السريين الذين قابلتهم هنا، خصوصًا أولئك الذين شاركوا في الانتخابات التونسية بعد الثورة، عبَّروا لي عن فرحهم الشديد لفوز حركة النهضة الإسلامية..

لم أستوعب كيف استطاع الدين أن يلعب دوره المخدر في عقول هؤلاء الشباب. وإن كان كلهم يقرون أن أوضاع بلدهم لم تزدد إلا سوءًا وتدهورًا بعد الثورة ووصول الإسلاميين للحكم.

حقًا، بلداننا لم تعد صالحة للحياة. نعيش فوق أرضها القاحلة كجثث تنتظر ساعة الدفن، بعد أن نُمنع من حق الإبداع والكتابة والغناء... بل حتى الكلام صار مُصادَرًا، سجلوه ملكية خاصة باسم الدولة، ببوليسها وسياسييها وفقهاء مساجدها... ثم

لقنونا ونحن صغار، بأنه لا يحق لنا النطق بالكثير. قالوا إن هذا الفعل يعتبر ثرثرة وقلة حياء.

علمونا أنه يجب علينا التفكير آلاف المرات قبل انتقاء الألفاظ والمعاني التي نريد أن نتلفظ بها. ثم جاؤوا في غفلة منا، ووضعوا عدادًا على فتحات الأفواه، حتى يمحصوا ويدققوا في كل حرف ترسله ألسنتنا...

قالوا إن العداد مقدس، ويجب علينا طاعته والانحناء أمامه بحركات تشبه الصلوات الخمس... وإذا ما فكرنا في التخلص منه وتحرير ألسنتنا من قبضته، فإن النتيجة ستكون مؤلمة، سيسيل معها الدم الكثير، والحقيقة أننا لن نحتمل قساوة القطع. وبما أننا لا نحب أن تتطاير ألسنتنا في الأنحاء، فقد اضطررنا لممارسة هواية الصمت، حتى بتنا نعتقد أننا أُصبنا بداء البهامة. عرفنا حينها كل شيء إلا حقيقة واحدة، هي أننا مُسخنا عن صورتنا البشرية، لنصير أبقارًا وقطعان غنم ترعى من عشب الدكتاتورية، ولا تعي بأن سكين الجزار تحوم حول أعناقها.

• • • •

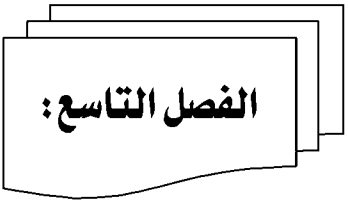

أيتها النجمة التي لا تموت : طفولتي

حياة المنفى قاسية ومريرة...

إنها تمنحك الحرية والعيش الكريم، لكن حنينك للماضي المطبوع بألوان البؤس والقحط يظل حاضرًا.. هو حنين مرضي ليس من السهل التخلص منه، وإن كنت أعتقد بأنني سأكون أسعد البشر بمجرد أن تقع قدماي على أرض سويسرا.. غير أن نوستالجيا الأمس ما زالت تحكم غلالها على فكري.

هنالك شيء ساخن يذوب، يملأ فراغ قلبي المجوف. يعتقد أنه بمقدوره أن يسافر وينطلق عبر أوردتي وعروقي، يغزو دماغي ويحطم أحاسيسي. هذا الشيء، لطالما عاينته عن قرب، لقد كنت بالأمس أصنعه ويصنعني، أنفخ فيه من روحي، أرفع المعاول وكل أنواع الأسلحة لأقاوم شره. الآن، أحاول تلخيصه في مجموعة من الصور التي قلبت حياتي جذريًا، وبقيتُ محتفظًا بها على رفِّ الذاكرة المجروحة، حتى أستطيع الجلوس مع نفسي وحيدًا، واحتساء فنجان قهوة بين الفينة والأخرى في سلام مستحيل.

ما زلت أتذكر جيدًا، يوم اشترى والدي جهاز تلفاز ملون ووضعه بعرض صالة منزلنا، كنت حينها في عمر السادسة، العمر الذي بدأ فيه عقلي يستفز كل من هم حولي، ويستفزني.

أحيانًا يسخر منهم مطلقًا ضحكات جنونية عالية. كان التلفاز صديقي الوفي. وكنت أقضي معظم وقتي متابعًا للرسوم المتحركة. اضطر والدي إلى رفع التلفاز أعلى الخزانة، لأنه لم ينجح في أن يجعلني آخذ مسافة بيني وبين الشاشة.

في كل مرة يعود فيها أبي إلى المنزل، كان يجد عيني ملتصقتين بالشاشة، وكأنني أتوسل متطلعًا أن يسرقني التلفاز إلى عالمه. كان مزاجه يسوء بشكل كبير، والدي الذي أحترمه كثيرًا وأحبه، إذ في مرحلة لاحقة حاسمة في حياتي سوف يشتري لي جهاز كمبيوتر بدل أن ينهي أشغال البيت الذي ظل دونما تبليط أو صباغة. كان يكرر أن الاستثمار الحقيقي هو ما يخصص للعقل وليس ما ينفق من أجل الآجر والإسمنت. حينما كان يستعيد هدوءه، وسكون كلماته، يبدأ في تحذيري من جديد من أشعة التلفاز التي قال لي مرة أنها تسبب العمى. لم يعلم أحد من أفراد أسرتي وقتها بأنني أعاني من قصر حاد في البصر، إلى أن التحقت بالمدرسة.. حينها اكتشف معلمي الأمر، وبدأتُ ألبس نظارات طبية. لسوء الحظ، لم يكن زجاجها متوفرًا بالمغرب. لذلك كان والدي يحرص على طلبها من فرنسا وننتظر شهرًا كاملاً حتى أحصل على زوج العدسات.

بطبعي، لم أكن أميل للعب مع أطفال الحي. لكنني في أحد أيام الآحاد، انتابني فضول قوي في الخروج وخوض مغامرات حرب معهم. كانوا يقذفون بعضهم البعض بقنابل من الحجارة، وطائرات خشبية تطير لبضعة أمتار قبل أن تهوي فوق رؤوسهم...

لم تمض أكثر من خمسة دقائق على انضمامي للمجموعة، حتى وجدت نفسي واقفًا عند قدمي أمي وزجاج نظارتي بين يدي. صرخت أمي في وجهي، لطمتني على مؤخرتي، وهي تجرني من ذراعي كغصن مكسور. كانت تلك هي أول وآخر مرة ألعب فيها مع أطفال الحي. لتتوطد شيئًا فشيئا علاقتي مع عالمي الفريد، بتلفازه الملون ورسومه المتحركة والقصص القصيرة التي كان يجلبها لي والدي، وأمضي وقتي كله أقرأها، وأردد سطورها بصوتٍ عالٍ، حتى أحفظها عن ظهر قلب...

استمرت حياتي وفق روتين أحببته، وإن لم يكن أمامي خيار آخر.. ما بين المدرسة والرسوم المتحركة والقصص المكتوبة والمصورة.

وأنا في سن السابعة، كانت أمنيتي أن يشتري لي والدي جهاز كومبيوتر. لقد سمعت بأنه يمكنني أن أقوم ببعض السحر من

خلال لوحة مفاتيحه، رغم إدراكي بأن جهازًا كهذا، لا بد أن يحمل معه تعقيدات كثيرة.

رأيتُ حينها، وأنا في سن السابعة حواسيب كثيرة ضخمة بأحد المعارض التجارية، وشعرتُ برغبة قوية في اكتشاف عالم التقنيات. كنت مهتمًا جدًا بشراء المجلات التي تعرض صورًا لأحدث الحواسيب وبرامج الكمبيوتر. لكن، لم تتح لي فرصة لمس لوحة مفاتيح حقيقية إلا خلال سنة ٢٠٠٢حينما هاجرتْ أسرتي إلى ليبيا.

أتذكر أنها كانت هجرة قسرية وقاسية، لكنها بقيت الخيار الأنسب لي ولأمي وأختي الصغرى، عوض قضاء بقية حياتنا بإحدى قرى مدينة سيدي قاسم، حيث يسكن جدي وأبناؤه. بعد أن اكتشفت أمي خبر زواج أبي من الممرضة التي كانت تشتغل عنده بالعيادة، تحولت حياتنا جميعًا إلى جحيم، وكادت أن تتطور الأحداث إلى الطلاق؛ لولا رحمة الأقدار الطيبة بنا.

حزمت أمي كل أمتعتنا وذهبنا عند جدي.

بدأ الجميع يحرضني ضد أبي، لكي أدفع بأمي وأشجعها على الطلاق... كان آخر ما يمكن أن أتصوره، هو أن ينفصل والداي عن بعضهما البعض. لم أكن مستعدًا لأحدد مع من أريد أن أعيش. لقد أردتهما معًا أو لا شيء.

أرسل أبي رسالة إلى أمي وجدي مع أحد أعمامي. يقول فيها بأنه طلَّق زوجته الثانية، الخادمة المغلوب على أمرها.
وقد قرَّر الهجرة إلى ليبيا بعد أن عرض عيادته للبيع. قال إنه سيمضي عامًا واحدًا هنالك، ليعود من جديد كي يصحبنا معه. كما وعد أن يرسل لنا بعض المال كل شهر من أجل تغطية مصاريف المعيشة.

كان هذا الخيار مُرًّا. لكنه أقل مرارة من سيناريو الطلاق. كما أن العروض التي قدَّمها والدي نالت رضا جدي، وهذا هو الأهم.

اصطحبني أحد أخوالي إلى بلدتي؛ حيث كنت أدرس؛ ليطلب ملفي الدراسي من أجل نقله لأتابع دراستي عند جدي. كانت بلدتنا حيث عشت أيام طفولتي الأولى رفقة أبوي قرية عصرية وحديثة، تتوفر على كل المرافق التي تجعل الحياة أكثر راحة، من كهرباء وربط ماء بالمنازل ومحلات تجارية وصيدلية ومقاهٍ عمومية. كما أن المدرسة لم تكن تبعد عن منزلنا إلا بضعة دقائق مشيًا على الأقدام..
كل هذا سوف يتغير بمجرد انتقالي لمنزل جدي. القرية هنا، صغيرة جدًا، بدون مرافق صحية أو خدمات، بجانبها؛ توجد هكتارات زراعية شاسعة وسواقي مياه إسمنتية وأحواض سقي محفورة على الأرض.

أما المدرسة فتوجد عند القرية المجاورة. والطريق إليها وعرة المسالك وموحشة. في فصل الشتاء يصير من المستحيل المشي، يجب عليك أن ترفع أرطال الطين مع كل خطوة تتقدمها. أحيانًا، كانت تعترض طريقي بعض الكلاب الضالة. كانت جائعة جدًا ونحيفة جدًا. لذلك أقوم بأخذ قطع خبز صغيرة وأقوم برميها أمامهاكلما توجهتْ صوبي وهي تنبح.

استمرت أيامي بالقرية الجديدة على منوال حي، متجدد. مرات كثيرة، كانوا يطلبون مني تقديم المساعدة في أعمال الحقل والمنزل. كنت آخذ كراستي وأذهب للحقل مع قطعان الماشية. وأنا في قلب الخلاء، أراجع أو أكتب واجبي المنزلي، وقطعان الماشية تجز العشب أمامي.

تعلمتُ أن أراقبها بأذني، فما دمتُ أسمع صوتها وهي تقضم العشب فإنني أستمر منحنيًا على كراستي، أكتب أو أقرأ دروس اللغة والحساب. وكلما غاب عني الصوت، فإنني أرفع رأسي، أقف مهرولاً باتجاه القطيع، لأعيده إلى مكان الرعي المخصص. هكذا تعلمتُ.. يجب دائمًا الانتباه إلى حقول القمح والشعير والفول من جراد الماشية.

كنتُ أستمتع بقضاء وقتي وسط الطبيعة، بعيدًا عن البشر وضوضائهم. الطبيعة هي المكان الوحيد الذي تستطيع أن تستمع فيه لقلبك ومشاعرك الحزينة، وهي تسبح في بحر همومك الهائج، أن تفتح كل الأبواب والنوافذ المغلقة، مطلقًا سراح خيالك، وأحلامك، وكل أمانيك.

كنتُ دائمًا أحلم باليوم الذي يعود فيه أبي من البلاد البعيدة، ليصحبنا جميعًا معه.

لقد مضى على غيابه أكثر من ستة أشهر.

حتى سماع أخباره لم يكن سهلاً.

كنا ننتقل إلى المدينة مرة كل أسبوع. ننتظر لساعات طويلة، سماع رنين الهاتف عند أحد أصدقاء العائلة؛ الذي كان يمتلك هاتفًا ثابتًا. أما أبي، كان يحاول.. ويحاول.. ويحاول ربط الاتصال، لكن دون جدوى. كانت الخطوط الليبية للاتصالات في ذلك الوقت سيئة جدًا. بعد أن نمضي ساعات الانتظار، نقرر العودة، رؤوسنا مثقلة بالحزن والكآبة.

وما إن نصل إلى القرية، حتى نسمع أن والدي اتصل بعد رحيلنا. أخبرنا صديق العائلة أن أبي كان يبكي، ويتحدث بصوت مجروح. الاتصالات الليبية للخارج دائمًا هكذا...

تبًا. تبًا للهواتف وتبًا لكل أشكال الاتصالات... هكذا كنت أقول وأنا أقضم شفتي من الغضب...

قررت بعد سنة وثلاثة أشهر أن أكتب رسالة خطية إلى والدي، لأخبره كم نشتاق إليه ولوجوده بيننا. قلت له :

إنني أتابع دراستي بتفوق. وقد حصلت على كشف نقاط عال.
وأرفقت الرسالة بنسخة من نتائج العام الدراسي، ثم سألته:
أبي متى ستعود؟

لقد أخبرت أصدقائي بالمدرسة بأنك ستعود بعد سنة.
وحينما انقضت السنة، سألوني :
لماذا لم يعد والدك ؟
قلت لهم بأنك ستكون هنا خلال أسبوع ثم شهر، فشهرين، فثلاثة..
أما الآن،
فأعلم بأنك ستعود لا محالة، وأعلم بأن الزمن بات يسخر مني.
غدوت أضحوكة بين زملائي بالمدرسة، وكل ما أسمعه منهم هو أنك لن تعود، لأنك تركتنا ورحلت،
فعد يا أبي، عد،
برهن للزمن وللأصدقاء من تكون.

مضت السنتان بمرها وحلوها، أحزانها وأفراحها.
وبقيت كل الأحداث محفورة ومنقوشة على الذاكرة بحبر أسود.
عاد والدي مكسور القلب. لم يصدق كما لم نصدق معه كل ما حصل.
كان يبدو الوضع ككابوس أسود دمرنا جميعًا ثم هرب.
لكننا الآن، نحن من يحاول الهروب من لعنة الماضي والحديث عنه. كل ما يهمنا الآن، هو أن أبي قد عاد، وعادت معه الابتسامات القديمة، وإن كانت في أحيان كثيرة مصطنعة وكاذبة.

قريبا، سنكون معًا كما كنا من قبل. صحيح، أننا سنهاجر إلى بلد آخر، سنكون أكثر غربة ومسافة عن أهلنا وأقاربنا، ربما عن أنفسنا أيضًا. لكنها ضريبة الحياة ندفعها الآن، مقابل حضن الأسرة ودفئه.

أخذنا الباخرة من مدينة طنجة إلى طرابلس الليبية. كانت رحلة غير عادية. ثلاثة أيام في البحر، تجعلك تحس وكأنك مقيم بدولة صغيرة.. أن حياتك لا تتجاوز الحدود الخارجة عن محيط الباخرة. أحيانًا، كنت أقف متأملاً الأمواج، أتطلع لرؤية ما إذا كانت هنالك بواخر أخرى غيرنا. كمن يحلم بوجود حياة أخرى خارج كوكبنا الأزرق.

حينما كنا بميناء طنجة، لاحظت وجود بعض الفتيات المغربيات بجلابيبهن المحتشمة، كن جميعهن محجبات. يرتدين ثيابًا متواضعة.

لكن بمجرد أن بدأت الباخرة في شق مياه البحر، معلنة بنواقيسها انطلاق الرحلة، حتى رأيتهن من جديد داخل سراويل قصيرة ضيقة. شعورهن منسدلة على أكتافهن. لقد تخلصن من الحجاب والجلابيب كما نتخلص من الواقي الذكري بعد ممارسة الحب سرًّا.

تساءلتُ عن السبب وراء هذا التغيير الكبير. وبعد الاستفهامات والتقصي ومحاولات استراق السمع عبر محادثات أبي وبعض أصدقائه الذين تعرف إليهم على متن الباخرة، علمتُ أن هؤلاء الفتيات عاهرات بليبيا. وأن كل واحدة منهن تعيل عائلة أو

عائلتين بالمغرب. إنها هجرة الجنس التي تدِّر تحويلات كثيرة على الدولة المغربية. حيث نقوم بتصدير النساء إلى الخارج من أجل حفنة دولارات، نقوم برميهن بين أنياب وحوش كاسرة، ثم نأتي لنتباكى ونلطم الخدود على الشرف الذي يعيش بين سيقان بناتنا وأمهاتنا...

أي نفاق أكبر من هذا،
وأي جريمة نرتكب في حق أنفسنا أبشع من هذه.

أشعر بالمرض والرغبة في التقيؤ، حينما أرى فتيات في مقتبل العمر، يتم استغلال حاجتهن وفقر أسرهن من أجل إباحة أجسادهن الغضة...

أي جريمة أبشع من إعدام حلم طفلة في الحياة، ودفعها بوحشية للعمل الخطر والسام.

على الأقل، لو كانت الدعارة مقننة بهذه البلدان، لتوفرت القليل من حماية حقوق كل محترفات الجنس، ومراقبتهن صحيًا ونفسيًا.
لكن للأسف. في مجتمعات النفاق والسكيزوفرينيا، نرفض أن نصارح أنفسنا بالحقيقة. نقوم بكسر زجاج المرآة التي تعكس بشاعة وجوهنا القبيحة.

الآن وأنا أكتب هذه السطور، تمر أمامي صورة أمينة...
الفتاة المغربية القاصر ذات الربيع السابع عشر، التي أُرغمت على الزواج من مغتصبها تطبيقًا لحكم المادة ٤٧٥ من القانون الجنائي، المادة التي تجنب المتهم العقاب، بتبرئته من تهمة الاغتصاب في حالة زواجه من ضحيته.

كيف لنا أن نتخلص من هذا الألم الأبدي، الألم الذي يجثم على قلوبنا ويحبس أنفاسنا ؟
كيف لنا أن نرفع أصواتنا في حضرة المحكمة، ونحن مقيدو الأيادي والأرجل، أمامنا مقاصل وحيوانات مفترسة ببطون جائعة ؟
كيف لنا أن نتحمل كل هذا، ونحن نعلم أن عقاب الآلهة أبدي سيزيفي؟...

إننا نكافح كفاحًا مريرًا من أجل أن يستمر الخطأ. إننا نحمي الجلاد، ثم نأتي بعد ذلك لنعدم الضحية على موائدنا الصامتة.
لم تكن أمينة أول من ينتحر بسبب انحطاط الإنسانية وموت الضمير.
سمعت في قريتي قصصًا كثيرة لفتيات فعلن مثلها، بقيت حكاياتهن الممزوجة بالحرقة تطوف مع أرواحهن الهاربة، إلى أن أُسدل الستار عن الكلام وعمتنا جميعًا لعنة النسيان...

انتحرتْ بقريتي، كريمة وربيعة وخديجة..
ربما أخريات. لكن لم أسمع عنهن.

قد يبدو فعل الانتحار هنا صادمًا، محزنًا، وغريبًا. لكن، لنكن أكثر واقعية، لنحاول أن نقبض على ما وراء الفعل.. كيف عساي أن أفسِّر انتحار فتاة مثل زهرة وفي عمرها؛ في تلك الفترة من الحياة حيث تكون الذات مغمورة بمشاعر الأمل والحب والبحث عن السعادة واللعب بالدمى...

هو ليس انتحار عدمي أو اصطدام سيارة ألبير كامو، بجذع شجرة في طريق مجهولة المسالك والجغرافيا.
لكنها جريمة قتل مع سابق إصرار وترصد.

إن آثار الجريمة هنا، أو لنقل انتحار كريمة، لم يكن إلا نتيجة لسلسة من الجذور العرفية والقانونية القاسية.
بداية من الأسرة التي عوض أن توفِّر لابنتها الحماية النفسية والمادية والعلاج اللازم للفعل الوحشي، الذي طال الروح قبل الجسد. ذهبت لتبحث بعمى أسود يقتل كل العواطف والعلاقات الإنسانية، عن مزاعم شريرة ومبررات من مساحيق الجهل التي اعتقدت أنها ستمحو ما لحق شرف الأسرة من عار... أي عار ؟

إنه الخوف من الأنثى ورهاب العار، يحتقرون المرأة ويبترون عضوها الأنثوي. خوف يدفع بالجسد إلى وأد نفسه في بحث عن السلام والسكينة، بعيدًا عن صرخات جراح الذات العميقة التي لا تسمعها الآذان الحية...

ماتت أمينة... ولنقل عاشت طفولة قاسية، أغتصبت حياتها، مستقبلها، ابتسامتها؛ قبل جسدها.. لونت كل أحلامها بالطلاء الأسود، بعد أن مُنعت الفراشات الملونة من لمس خصلات شعرها...

لم تجد أمامها من خيار سوى النوم بسلام، في قبر. ربما يكون المنفى الأخير، بعيدًا عن الوخز الحرق أمام إهمال العدالة وسوء فعل القانون.

ماتت أمينة اليوم. بالأمس، كانت زوجة تتلقى الصفعات، تعيش كابوس الجنس الأليم مع مغتصبها. الرجل الذي مكنه القانون من الفرار من العقاب، أي عقاب سيعيد للمغتصبة حقها ؟ نعم. لقد اختاره القانون زوجًا لها، ليخلص المفترس من العقاب، ولتستعيد الأسرة شرفها العار.

أي قانون هذا الذي يحمي الجلاد ويدين الضحية ؟

أرقني كثيرا، هذا التفكير في الشرف. في كل مرة أعبر عن رغبتي في ممارسة حريتي الجنسية بالشكل والطبيعة التي أحب، ينهال فوق رأسي السؤال الملعون : هل ترضاه لأختك ؟ وكأن كل الأسئلة تنتهي عنده.

ما لا يعلمه طارحو هذا السؤال الحقير، في محاولة بائسة لمعرفة رد فعلي كرجل شرقي، حول ما إذا كنت أرضى لأمي أو أختي أن تتصرفا بجسديهما كما يحلو لهما.

ما لا يعلمه هؤلاء الأوغاد، أن أمي عاقلة وأختي راشدة.
ولهما معًا كامل الحق في التصرف كما تريدان بجسديهما.
حرية كاملة ومطلقة.
لا يحق لأحد نقاشها أو الخوض في تفاصيلها.
لست أنا... ولا أنت... ولا غيرك... من يقر لهما بذلك.

لأمي كما لأختي، ولأمك وأختك أيضًا، الحق في التصرف في أعضائهن التناسلية.. كما لك نفس الحق على سريرك.

أنا لا أرضى لأمي وأختي إلا ما ترضياه لنفسيهما.

إن اختارت الأخت أن تمارس الجنس مع عشيق لها، دون الرجوع إلى عقد نكاح بالٍ يحدد الناكح والمنكوح، أو الخوض في عملية بيع وشراء تحت اسم الصداق، فلها ذلك.

وإن اختارت أن لا تمارس رغباتها الجنسية إلا داخل مؤسسة الزواج وعقد قران بعد أن يقرأ الجميع سورة الفاتحة وتوزع كؤوس الشاي على الحاضرين، فلن أتردد في أن أكون أول من يدافع ويناصر حقها في ذلك.

شرفي أيها القارئ، لا يرضى أن يعيش بين سيقان امرأة.. شرفي لا تحفظه قطرات دم ليلة الدخلة.. شرف أختي لا يحمل مفاتيحه رجل فحل يعاني من رهاب الجسد، ولا ترقعه أغشية مطاطية مستقدمة من مصانع الصين والعيادات السرية بالدار البيضاء...

شرفي يعيش ويحيا من قيمة الحرية التي يجب أن تكون بيدي وبيد حبيبتي، حقها الكامل في الحياة والاختيار، لأنها ببساطة ليست عملة قديمة مودوعة بخزينة حسابي البنكي، ولا مملوكة تسكن مطبخ منزلي... هي إنسان.. أسمعتني؟ إنسان!!!

هل يعرف أحدكم معنى إنسان ؟؟.

• • • •

فوق رمـال ليبيـا

نحن الآن بليبيا...

أخذت منا الإجراءات الأمنية للميناء الكثير من الوقت.
كانت معنا الكثير من الأغراض والأمتعة. أجسادنا جد مرهقة بدوار البحر. كان يومًا مشمسًا وحارًا. مدينة طرابلس ليست بالتقليدية ولا العصرية، لا توجد بها أية بنايات أو منشآت ضخمة. لكن، هنالك سيارات فخمة وسائقون مجانين.

ذهبنا إلى مقهى عمومي. بجواره، يوجد مكان ضليل ونسيم ريح بارد. وضعنا الأمتعة على الأرض ثم جلسنا فوقها.

فتحت أمي غطاء رأسها وبدأت تلوح به على وجهها من شدة الحر. طلب منها والدي أن تعيد الحجاب على رأسها فورًا، فهو معروف هناك، حتى أنهم نحتوا اسمه على شاهدة بطبرق منقوش عليها أسماء الحيتان البشرية، وهو اسم من ابتكار والدي، أُطلق على من تطوعوا لتفجير الأساطيل الأمريكية من العرب بطريقة انتحارية إبان الحرب الأمريكية على ليبيا في الثمانينيات.

أحضر لنا سندويتشات تونة ومشروب غازي. أكلنا بشراهة، وشربنا الكثير، حتى اعتقدنا أنه لن تحركنا من مكاننا إلا معجزة أو سيارة إسعاف.

كان يجب علينا الانتظار ليوم كامل، فالحافلة التي ستقلنا إلى مدينة بنغازي تبدأ رحلتها ليلاً.

وصلنا إلى بنغازي صباح اليوم الموالي، هنالك التقى والدي بعض أصدقائه القدامى، كان من بينهم طبيب أسنان، قيل لنا، بأنه يرأس قسم نقابة طب الأسنان ببنغازي. رحَّب بنا كثيرًا، وأخبرنا أن والدي كان مدرسة في الطب، ويعود له عليه الفضل الكبير في مساره المهني. شعر أبي بالإطراء. طلب منه أن يوفر لنا سائق سيارة تاكسي لمدينة سوسة الساحلية.
دامت رحلتنا مجددًا يومًا كاملاً.

بمجرد وصولنا، لم نستطع حتى تغيير ملابس السفر، فقد ارتمى كل واحد إلى جانب من الشقة التي كانت تابعة لمركز الهلال الأحمر الليبي حيث يشتغل والدي، وخلدنا إلى نوم عميق.

في اليوم الموالي، أخذنا أبي في جولة بالمدينة.
سألته أمي إن كانت هنالك أية جالية مغربية تقيم هنا. قال لها :
ـ أعرف رجلاً مغربيًا يسكن بجوار الشاطئ، يقضي طوال وقته مع صنارته ثم يعود لبيته ليلاً، ليطعم زوجته وابنته الصغيرة، كان فقيرًا جدًا، ولا يقدر على بيع جهده العضلي في أعمال حرة، لذلك، لقد كان مصدر قوته الوحيد هو صنارته وما يجود عليه به البحر من أسماك.

بعد عدة أسابيع،شعرتْ أمي بوحدة وغربة حادة. قالت إنها تحتاج إلى جيران وأقارب :

- منذ جئنا إلى هذه الحارة السوداء، لم يطرق بابنا أحد. هل هذا هو قدري ؟ أن أعيش في بُعدٍ تامٍ عن الآخرين ؟ إننا نعيش بهذه الشقة الواسعة والجميلة، لكن خلفها لا يوجد إلا سور عال، وأمامها المركز الطبي الذي تشتغل به ؟ أريد أن أتنفس. خذني عند صديقك المغربي وزوجته. أرجوك. أريد الحديث وتبادل الكلام مع أهل بلدي...

هكذا كانت أمي تناجي أبي.

أمي الجنة الوحيدة التي صدقتني.

رافقته ذات مساء بعد انتهاء دوامه بالمصحة إلى الصياد مرفوقين بقُفة من الخضروات واللحم، أخبره الوالد بأن أمي تشعر بالغربة وتريد أن تجتمع بزوجته قليلاً. رحَّب الصياد بالدعوة، لكنه رفض أن يأخذ القُفة لولا إلحاح أبي المتكرر. رغم الفقر والحاجة، إلا أن هنالك أناس لا يرضون بالصدقة، ويفضلون صيد سمكة عوض أن تأتيهم هدية.

ذهبنا جميعًا من أجل العشاء، كان الكل يتحدث ويضحك. أخبره أبي عن بطولاته في السياسة، ومع النساء، وعن طرائف عمله

بالمصحة... ثم يرد عليه الصياد بكلام عن البحر والشاطئ، وكيف حاول جاهدًا ذات مرة أن يحفر قبور الآثارات القريبة من الشاطئ باحثًا عن الكنز. لكنه في كل مرة يحفر، لا يجد أمامه سوى النمل، وكل نملة يقارب حجمها حجم الثمرة الكبيرة.

كانت كؤوس الشاي تأتينا إلى الصالة، بينما أمي وزوجة الصياد بالمطبخ يحضران العشاء، ويتحدثان إلى بعضهما بصوت خافت، بالكاد يُسمع. امتلأت أمي بعدها بالسعادة، وقررت أن تزور زوجة الصياد كلما احتاجت لأنيس تشاركها خواطرها وتشاركها الكلام على طاولة الشاي المغربي.

التحقتُ من جديد بالمدرسة... كنتُ في كل مرة أجد إحساسًا بالخوف والانطواء يجرني ويمنعني الانسجام والتكيف مع عالمي الدراسي.. في كل مرة أشعر فيها أنني بدأتُ أتكيف مع محيطي الدراسي يحصل طارئ ما، ليأخذني بعيدًا، كي أعيش تجربة مجهولة محفوفة بكل أنواع المفاجآت.

عمل أبي لا يعرف الاستقرار. هو محكوم بعقوده، التي يوقعها كل سنة مع مصحات ومراكز طبية مختلفة. الآن، يخبرنا من جديد أننا سننتقل للعيش على الحدود المصرية الليبية، بمدينة طبرق.

من جديد، على والدي البدء في إجراءات طلب تنقيلي لمدرسة ابتدائية هناك. في كل مرة أجد نفسي حزينًا، ضائعًا بين كل هذه المسافات الجغرافية من الفوضى والحركة العنيفة. لم تكن لدي أية صداقات حقيقية. كان وقتي كله للمدرسة وألعاب الفيديو. على الرغم من تفوقي الدراسي، وحصولي على معدلات عالية، إلا أن أبي لم يكن راضيًا بذلك..

كانت عندنا مكتبة صغيرة بالمنزل، مصفوف بها عدد كبير من كتب الدين والفقه، كان والدي كثير الحرص على تعليمي فرائض وأركان الإسلام... حينما يعود من العمل، يسأل أمي إذا ما أديت الصلوات الخمس. كنت أصلي إرضاءً لوالدي، وتجنبًا للعقوبة التي كانت في أحيان كثيرة تتجاوز ألفاظ السب والشتم. كان التزامي الديني هروبًا لا إراديًا من العنف المقدس. وإن كنت أجد بداخلي شهية للثورة، لكنها كانت في بدايتها، وكانت إرادتي نحو المقاومة فتية وغير ناضجة. لأتحمل لكمات الحظ السيئ. لم يكن أبي هكذا من قبل، لكنه اليوم، هنا بالأرض الغريبة، صار أكثر دينًا.

• • • •

الشيطان ينبت في دار القرآن

اليوم، هنالك حدث غير اعتيادي، حاسم في حياتي كلها. لم أعلم حينها أنه سيبقى منقوشًا في تاريخي كوشم عميق. إنه اليوم الذي قرَّر فيه والدي إلحاقي بمدرسة دينية لتحفيظ القرآن. اعتقد أنها الطريقة المُثلى لملأ أوقات فراغي بما يرى فيه الفائدة، لا أنا.

أخبرني بذلك منذ أكثر من شهر.

اليوم فقط، قرَّر إرسالي لمدرسة القرآن بعد أن منحه إمام المسجد الضوء الأخضر بعد صلاة العشاء من يوم أمس...

كان لدي من الوقت ما يكفي لأوفِّق بين دوامي الدراسي بالمدرسة ودار القرآن.

كنت متحمسًا لاكتشاف أجواء دار القرآن. اعتقدتُ أنها مدرسة لا تختلف كثيرًا عن بقية المدارس. فتحتُ خزانة ملابسي وبدأت أفكر في لباس جميل كي أرتديه لهذه المناسبة الجديدة.

الجو حار، أخذتُ سروالاً قصيرًا فوق الركبتين وقميصًا رياضيًا أبيض...

ذهبتُ إلى الدار، كانت لا تختلف عن مدرستي من حيث الشكل الخارجي : بناية محاطة بسور كبير، تشعر معها وكأنك مقبل على سجن. بالجوار، مسجد الحي. على بعد أمتار سمعت طلبة

الدار يرددون سورًا مختلفة من القرآن. على الباب، كانت هنالك أحذية كثيرة متناثرة، وعلى الحيطان من الخارج، أسندت بشكل أفقي ألواح خشبية كثيرة وأقلام كتابة من القصب والريش..

تركتُ حذائي خارجًا تمامًا كما رأيتهم يفعلون. دخلتُ الدار بخطوات بطيئة ضيقة. بدأت أتأمل رفوف المكتبة، وبقية الطلبة الذين أسندوا ألواحهم على الحائط، بينما ظهورهم تقابل بعضها البعض، يرددون بصوت عالٍ آياتٍ من القرآن.

في لحظة، عمَّ المكان صمتٌ مفاجئ. بدأ الجميع ينظر إليَّ من أسفل قدمي حتى رأسي. كنت أحمل بيدي اليسرى كيسًا بلاستيكيًا به كراسة وقلم حبر وقنينة ماء صغيرة. بينما يدي اليمني تحك رأسي، وعيوني مشتتة في جميع الاتجاهات.
وقف أحد الطلبة واتجه صوبي. كان يبدو أكبرهم سنًا وأقواهم بنية. اعتقدتُ أنه المدرس للوهلة الأولى. سألني :

ـ هل أنت طالب جديد؟

أجبته :

ـ نعم. لقد أخبرني والدي أنه تحدث إليك عني. لقد طلبت منه أن آتي هنا اليوم.

لم يرد بكلمة واحدة.

بدأ ينظر إلى نصفي الأسفل، وكأنه يبحث عن شيء مفقود. ثم طلب مني مرافقته.

خرجنا إلى ساحة الدار. زربية مفروشة تحت ظل شجرة زيتون وافرة الأغصان. تحتها كان يجلس رجل بلحية طويلة وثياب بيضاء. دنونا منه. جلسنا، حينما انتهى من قراءة المصحف الذي كان مفتوحًا أمامه بينما هو يردد بعينين مغمضتين...

نظر إلي قائلاً :

- السلام عليكم. لقد أوصاني والدك بتعليمك، والحرص على حفظك لكتاب الله.

ثم أضاف :

- وإن شاء الله تكون صدقة جارية، تهدي أباك الفردوس بإذن الله.

فكَّرتُ مليًا بداخلي :

أهدي والدي الجنة ؟ هل أنا هنا من أجل حفظ القرآن ؟ أم هي مهمة مقدسة ؟ وما دخل هذا بذاك ؟ الجنة لا أملك مفاتيحها.. حتى أنني أجهل عنوانها. كل ما أعرفه هو أنها مكان يذهب إليه الأخيار ليعيشوا سعداء بعد الموت. بجوارها، توجد جهنم؛ حيث يسكن الأشرار واللصوص والشياطين.. في كل لحظة من

حياتي، صراحة، كنت أشك في قرارة نفسي في إمكانية وجود هذا المكان بشقيه الأبيض والأسود.
لكنني كنت مجبرًا على الإيمان به.
لم يكن هنالك أي خيار آخر أمامي. لذلك، فالإيمان هنا يصبح عادة اجتماعية وموروثا أسريًا لا خلاص منه.. كما أنني لم أجرأ يومًا على إخبار أبي بما يخالج صدري من أسئلة وشكوك. لقد احتفظت بكل الألم بداخلي، إلى أن أصبحت أحقد على نفسي. أعتبر أن كل الأسئلة التي تؤرقني هي نتيجة لمرض نفسي أعانيه. كنت أدفع بنفسي في كل مرة من الضيق والقلق، إلى الإكثار من حفظ القرآن والصلاة، في اعتقاد أعمى أن العلاج يكمن هناك، إلى أن صار حفظ القرآن أقرب شيء إلى قلبي وطقسًا مهمًا من حياتي.

لقد جعلتني ظروفي أرمي بنفسي نحو معترك لا يوجد به سوى مدمنو الحفظ والاستسلام. إنها قسمة العيش بين أحضان شائكة لأسرة لا تؤمن إلا بالطاعة مقابل الحماية...

أخبرني الفقيه بأنني ملزم بالحفظ يوميًا.
وأنه لا نفع للكراسة والقلم اللذين أحضرتهما معي.
ثم نادى بصوت حاد على أحد الطلبة الذي قدم مهرولاً في الحين.

أمره أن يرافقني إلى مرفأ المدرسة ثم يختار لي لوحًا خشبيًا لأكتب عليه سور القرآن لحفظها.

كنا نكتب بمادة مصنوعة من صوف الخرفان تسمى السمق. توضع بعلب صغيرة كالتي تحوي حبوب الأسبرين.

كنت أحفظ كل يومين ثُمنًا من القرآن. ما يقل أو يزيد عن الصفحة من الحجم المتوسط. استمررت على هذا المنوال لشهور عديدة، حتى أصبحت مؤهلاً للتباري من أجل الحصول على جوائز في مسابقات حفظ وترتيل القرآن.
شاركتُ في العديد منها. كنتُ دائمًا أنجح في الوصول إلى إحدى المراتب الثلاث الأولى.

بدأتُ أشعر بشيء يجذبني أكثر لحفظ القرآن، كرضا أبي الذي كان يفتخر بي أمام أعين أصدقائه؛ حينما يقوم بدعوتهم إلى بيتنا للعشاء؛ يطلب مني أن أرتل لهم بضع آيات من القرآن. بل حتى هو، رغم ضيق وقته الذي كان يمضي جُلّه بالعيادة، أصر على البدء في حفظ القرآن.
كان يكتب منه بضع صفحات ويضعها أمامه على مكتبه، ثم يشرع في قراءتها وترديدها إلى أن يتمكن من حفظها.

بدأ المرض يتوغل بداخلي، ما عدتُ أقبل أن أسمع شيئًا عن الكفار والغرب. صرتُ أنظر للحقيقة ـ كل الحقيقة ـ في القرآن والإسلام. كنتُ أعتقد أنني قد تخلصتُ كُليًا من شكوكي الإبليسية التي كانت تسّبب لي أرقًا وقلقًا وجوديًا عسيرًا. أصبحتُ ألبس ثوب المؤمن الملتزم الذي ينأى بنفسه عن التطرف والغلو في دينه. لكنه في نفس الوقت، يغار على عقيدته ولا يقبل أن تمسها الإهانة من أي كان..

نعم لقد كنت ساذجًا، والساذج هو من تخدعه أسطورة الأديان.

استمرت حياتي على هذا المنوال الرتيب. أمضي جُلَّ أوقاتي بين المدرسة ودار القرآن. أحيانًا، أزور الشيخ ببيته ليراجع معي ما حفظته من القرآن...

حينما حصلت على الشهادة الابتدائية، قرَّر والدي العودة للمغرب والاستقرار بشكل تام.

أمي لم تعد تطيق الحياة هنا. كرهت اللهجة الليبية ولم تعد تحتمل حياة الغربة أكثر.منذ أن قدمتْ وهي تعمل جاهدة على خلق حياة أخرى، مختلفة بالشكل الذي يسعدها ويسعدنا، لكن كل تجاربها باءت بالفشل. لقد كانت والدتي صديقة حقيقية لي. بل أكثر من ذلك. لم يكن بالإمكان أن أتصور نفسي بعيدًا عن

ظلها وروحها. كل أسراري كانت تحتفظ بها في مكان ما من قلبها. والدتي التي فيما بعد - في مرحلة التهديدات بالقتل - سوف تساندني وتمنحني الضوء لمواصلة الطريق رغم أنها تصلي خمس مرات في اليوم...

لقد كان لأبي أكثر من مبرر للعودة. جدتي توفيت ولم يعلم بخبر وفاتها إلا بعد مضي أربعين يومًا من دفنها. أما جدي، كان يعاني من أمراض الشيخوخة، والكل يعلم أنه يعيش أيامه الأخيرة. الأسرة ككل، لم تقدر على مرِّ كل هذه الشهور الطويلة أن تتعايش مع المنفى.

• • • •

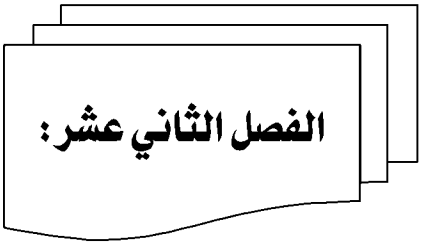

الـوطـن هو الجحيم

كان لدينا من المال ما يكفي لسداد كل الديون التي أثقلت كاهل الوالد، وبناء منزل متواضع للاستقرار بجوار الجد المريض. كما كان لأبي حلمٌ سامٍ. حلم أن يكون له مشروع مصحة طبية صغيرة.

كنتُ أشعر بنوع من الحنين يشدني إلى ليبيا. في الواقع، لم يكن حنينًا عاطفيًا أكثر مما هي مخاوف الإقدام على تجربة أخرى مجهولة. بالنسبة لي، كان الوطن عبارة عن ذكرى فقط. لم أشعر مطلقًا بأي انتماء لبيئة أو جغرافية معينة. كل ما كنت أبحث عنه، هو لحظة من الاستقرار تدوم بلا نهاية، على الأقل لا تنتهِ إلا مع صباح اليوم الموالي.

عدنا إلى المغرب...

بدا لي كل شيء على غير عادته. الأشياء التي تملأ فراغات هذا المكان ليست كالتي ألفتها بالأمس. كنت أبحث عن هويتي التائهة بين كل تلك الأسماء والأشكال المختلفة. ما عدتُ أطيق الكلام، ولا حتى سماع ضوضاء الحروف والضحكات المخيفة. وأنا في ذلك العمر، لم أفهم معنى كل هذه التغيرات التي تطرأ على حياتي بشكل أسرع من وميض البرق. كنتُ أشعر بالأحداث كقطار يدهسني، ألمس سيوفها الحادة، تُغرز بقوة داخل عيوني التي ما عادت تطيق النظر نحو شيء اسمه المستقبل..

اعتدتُ الاستيقاظ كلَّ صباح باكرًا. أضع المخدة على نافذة غرفتي المطلة على مقبرة القرية. أدنو برأسي ملامسًا الهواء البارد إلى أن أشعر بتماس مغناطيسي يشدني نحو المقابر والحشائش التي تغطيها، أتلذذ برائحة العظام تحترق كفحم أبيض، متوهج، يشحن النجوم الليلية ويمنحها اللمعان والحرارة.

نسمع هنا قصصًا كثيرة عن المقابر والأرواح الشريرة التي تتخذ من جدرانها مساكن تأويها. على الرغم من ذلك، لا أحد من سكان القرية أو المارين من هنا يملك الشجاعة اللازمة، ليقف في وجه هذا الشر ويطرده بعيدًا، لذلك كنتُ أترك نافذة الغرفة مفتوحة قبل أن أنام لأعيش بعض لحظات القوة وأنا أحارب الشر في منامي عوض أن أقتات على لحم الموتى.

هي نفس النافذة التي كنت أراقب من خلالها خطوات المارة وضجيج السيارات وحافلات الشحن الكبيرة. أحيانًا، كنت أتابع ركب التلاميذ وهم يمرون مثقلين بحقائبهم الدراسية في مجموعات صغيرة. كنت أتساءل لماذا لا أكون واحدًا من بين هؤلاء ؟ ربما أجد في صحبتهم شيئًا ينسيني سوداوية الحياة الكئيبة.

سألت والدي :

- متى سألتحق بالمدرسة من جديد ؟

مضى ما يزيد عن الشهر على عودتنا من ليبيا. أما الموسم الدراسي فقد بات في شهره الثاني... غير أنه كان يحتفظ بالإجابة لنفسه، مكتفيًا بالقول :

- هذا ما يؤرقني يا بني، لكنني سأجد لك حلاً في أقرب الآجال.

اعتقدتُ حينها أنه ربما يفكر في إلحاقي بأحد المدارس الخاصة، حيث يدرس ابن المستشار البرلماني، الرجل الذي تدور قصته على ألسنة الجميع. هنا، قد بات الشخص الأكثر أهمية ونفوذًا منذ أن منحه حظه الفرصة في أن يصبح برلمانيًا. الأقاويل تتضارب عنه وعن ثروته. هنالك من يقول إن المرتب الذي يصرف للبرلمانين يكفي ليجعل المرء يأكل اللحم على مائدة غذائه كل يوم. هنالك من لعنوا الوطن والحكومة، قالوا إن كل من صار برلمانيًا، لا بد أن يكون له نصيبه من الثروات المسروقة، البرلمانيون هم وحدهم الأكثر قدرة على سرقة خزينة الدولة ثم الفرار من العدالة بكل حرية، حصانتهم تكفي، يقفون أمامنا بدون حياء وكأنهم ينتظرون الشكر.

مهما يكن، وضعي لا يحتمل كل هذا التعقيد.. لا يهمني من سيكون زميلي بالمدرسة، سواء كان ابن البرلماني المتهم بسرقة أموال الشعب، أو ابن ماسح الأحذية الذي يعيش تحت رحمة المارة وزوابع الغبار. في الأخير تبقى أقسام الدراسة هي نفسها، بكراسيها الخشبية ولوحاتها السوداء. ويظل الفارق بيننا هو من يستحق لقب : التلميذ النجيب.

صحيح أننا جميعًا في الشهور الأولى من حياتنا نسكن نفس الرحم، لكن، بمجرد أن نطل برؤوسنا خارجًا، حتى نبدأ في استنشاق هواء هذا العالم المحمل ببكتيريا الأنانية والحقد. نعرف أن هنالك من ستستقبله الحياة بالأحضان وتجعل منه ملكًا لأن والده وجده وأسلافه كانوا من سلالة الملوك واللصوص ومصاصي دماء البشر. سيعيش الملك الصغير بقصر كبير، وسيكون له مستشفيات لوحده، ودكاترة خاصين، ومسابح وملاعب خاصة، عندما سيبلغ عمر العشر سنوات، سوف يجد الجميع يخافه ويرهبه، ينحنون أمامه ساجدين من أجل قُبلة على يده. الأستاذ يقف أمامه مرتجفًا من قلق ولي العهد وبطشه. تكون للملك المدلل شهادة دكتوراه دون أن يعرف عنوان الجامعة. في الأول والأخير، الشعب والبحر والأرض كلها ملكه، هو وحده لا شريك له...

وفي مملكة الملك، هنالك من ستتجمد رئتيه من البرد، وتُقطع صرته بسكينٍ صدئ، لا حليب في ثدي الأم التي تعاني من سوء التغذية. يعيش الطفولة عاريا دون ملابس؛ فقط خرق بالية لا تستر حتى عورته، وجدتها أمه بعد بحث شاق، بسوق الخردة. سوف يشرب من ماء القرية الوسخ، الذي تسبح فيه أنواع كثيرة من الدود والحشرات...

وهو ذاهب إلى المدرسة في يوم ممطر، سوف يفك رجليه من حفر الطين، سوف يعضه كلب. المعلم يضربه بتلك العصا المخلوعة من جسد شجرة، يقولون : العصا خرجت من الجنة..

يمشي دون حذاء،

وجهه تطبعه بقع من المرق عندما يكون محظوظًا،

أرهبوه بالجن ونار جهنم.

قالوا له :

- بمجرد أن تموت سيزورك الجن في القبر.
- لا تكذب لأنك ستحترق بنار جهنم.
- عليك الحذر من القط الأسود والسحر الأسود.

يكبر وهو خائف ومرعوب. مع مرور الأيام، يكبر الطفل، والمرض يكبر معه. يزور الطبيب. يصف له كل أنواع الأدوية. لا يجد بجيبه مالاً كافيًا.

ليعود إلى البيت ويصلي.
ثم يسأل الشيخ أن يدعو له بالرقية الشرعية...

الناس تسافر في الطائرة والباخرة والسيارة الخاصة، وهو يسافر في الزحام والروائح الكريهة وعلى ظهور الحمير والبغال.

وفوق كل شيء، يقولون : الله أراده أن يكون هكذا كي يفوز بالجنة، يجب أن يكون مسلمًا.
ربه يقول : ذاك قدره وقد كتبت حياته في السماء، المؤمن مصاب.

في لحظة، يكفر بكل الآلهة... لكنه يبقى مصابًا...
عليلاً حتى النخاع،
ولا يبقى أمامه سوى تراجيديا النوستاليجا.
وحلم في انتحار على المقابر السائلة بأعالي البحار،
طمعًا في الوصول إلى الضفة الأخرى حيث يعيش الإنسان.

• • • •

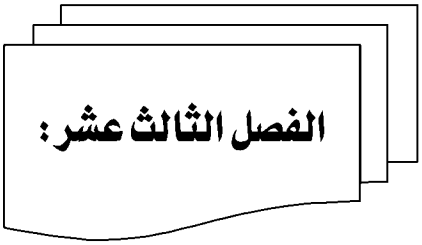

أزهار الموت ، أزهار الحياة

الحياة هي كل ما نصنعه.
كل تلك الأحلام التي تهيمن على حواسنا وتفكيرنا لدرجة يصعب معها التمييز بين الحلم والواقع.
نعيش الحياة حتى في أحلك الأوقات وأشدها ألمًا، يأخذنا الحلم من قلب المعركة إلى شواطئ السكينة والهدوء. ثم تطعمنا أحلامنا بشيء خفي وسحري نسميه الأمل.
ندرك أن سر سعادتنا يكمن في قلب كل واحد منا، حيث تعانق الفرحة الحزن، ثم يقفان في صف واحد للصلاة، يصليان معًا لأجل قداس المحبة...

يحملنا الأمل على شطآنه في نزهة بحرية من يوم صيفي حار وأمواج ساكنة.
كل شيء يبدو حيًّا وساحرًا..
لكن في لحظة، يهتز الكون من حولنا..
تنحرف الأرض عن مسارها، تتمزق الأشرعة، تتعالى الأمواج من كل الجوانب، تضيع كل البوصلات. غرق من جديد. غرق. غرق وحلم. حلم ليس كباقي الأحلام...

إنه الكابوس الذي أعيشه الآن، بعين مفتوحة ولسان مبتور.. لكنني ما زلت أكرر المحاولة... لعلي أنجح على الأقل في تدوينه هنا..

في أحد أيام الآحاد، أخبرني والدي أنه قام ببعض الاتصالات اللازمة بخصوص موضوع التحاقي بالمدرسة، وبأن هنالك إمكانية كبيرة جدًا أن أدرس علوم الدين والشريعة بمدينة فاس لمدة ثلاث سنوات متتالية، ستؤهلني لأكون طالبًا متخصصًا في مسلك علوم الشريعة بجامعة القرويين الدينية. وحتى يتم قبولي بهذه المدرسة، من الضروري اجتياز اختبار كتابي، وآخر شفوي، في قواعد اللغة العربية وبعض الأحكام الشرعية. هذا ليس كل شيء. الاختبار، من الصعب النجاح فيه دون مساعدة أحد. لا بد من شخص يتوسط لنا عند مدير المدرسة.

لم يكن لنا حينها من شخص آخر يستطيع ذلك، سوى السي أحمد الغزالي، أحد أعمام أبي. خطيب جمعة، وأستاذ محاضر في شعبة الدراسات الإسلامية بجامعة القرويين، وله نفوذ قوي يستمده من شبكة علاقاته الواسعة مع أعيان المدينة من سياسيين ورجال أعمال وأساتذة جامعيين..

أخذني والدي إلى مدينة فاس التي تبعد عن قريتنا بحوالي ٣٥ كيلو مترًا، بعد أن هاتف السي أحمد الذي مكنه من ضبط موعد مع مدير المدرسة.

منذ أن ركبنا الحافلة، ظل أبي يحدثني عن أيام طفولته القاسية. أخبرني الكثير عن بعض الذكريات التي ما زال يحتفظ بها.

كان يروي لي قصته حينما طرده جدي من المنزل واضطر للعيش مع أخيه وزوجته. كيف كانت تطلب منه أن يغسل خرقها الملوثة بدم العادة الشهرية كلما وجدته منهمكًا في التحضير لواجباته المنزلية.

وأنا أستمع لقصصه التي أضافت إلى ألمي ألمًا مضاعفًا. شعرت وكأنه يحضرني لنفس المصير الذي مرَّ منه خلال طفولته. لكنه، وقبل أن ينهي حديثه عن الذكريات الصعبة من طفولته قال لي:

- إن كل ما أقوم به الآن هو من أجلك. يجب أن تعلم أنك محظوظ جدًا، بوجود أب يفكر ويرسم مسار حياتك بالشكل الصحيح. حينما تكبر، ستشكرني كثيرًا على كل الأشياء التي قمت بها من أجلك، لأنني أدرى منك بمصلحتك..

عبارات شهيرة يسمعها الأطفال باستمرار.

الطفل عندنا، بدل تشجيعه على التفكير واستعمال العقل لفهم الواقع والمشاركة في صياغة القرارات، يتحول إلى ملكية خاصة. الوالدان يستعملانه ويتحكمان بمصيره كما يفعلان بدراجة أو كرسي. حينما يحاول الطفل التفكير، وتخطو رجلاه

نحو الأسئلة الأولى وخواطره البريئة، أو حتى عندما يشعر برغبة الرفض والتحرر من القوالب، يكون مصيره الطرد والتعنيف.

مجتمعاتنا بتنشئتها الاجتماعية، ورزنامة الأعراف التي تميزها، تنحت في عقولنا حقيقة أن صغر الأشياء يدل على نقصها. وصغر العمر ما هو إلا ضعف يجب تخطيه بسرعة، دون الإشارة إلى أن الطفولة هي التي ترسم ملامح الشخصية التي يحملها مجتمع المستقبل. علاقة قد تعطي الإجابة لظاهرة الملايين من الشعوب الخاضعة والجاهلة... الماكينة التي تعيد خلق نفس شروط الجهل والتخلف، وتضمن استمرار شبيهها في العجز والضعف.

وصلنا إلى مدينة فاس، في رحلة دامت حوالي الساعة. محطة الحافلات مكتظة بالمسافرين. أغلبهم وافدون على المدينة مثلنا. منتشرون عند باب المحطة وعلى جنبات الأرصفة الضيقة. باعة متجولون يفرشون بضاعتهم على الأرض.

البرنامج حُرّ. لكن قبل ذلك، يجب أن نذهب إلى المدرسة من أجل مقابلة المدير أولاً. أخذنا سيارة أجرة صغيرة، لنصل قبل موعد اللقاء. كانت مفاجأتنا كبيرة، حينما طال انتظارنا خارج

مكتبه لما يزيد عن الساعة. اعتقدنا أنه لن يحضر. هممنا أكثر من مرة بالرحيل، والقدوم في يوم آخر. لكن كنا مثبتين إلى الكراسي الإسمنتية بجاذبية خفية. لم نتحدث كثيرًا. وبقينا نراقب صمت ساحة المدرسة الواسعة.

نحونا، يتقدم شيخ. يسألنا الرحيل خارج المدرسة. باءت كل محاولات إقناعه بالسماح لنا بالانتظار أمام مكتب المدير بالفشل. كلما أخبره أبي أن لنا موعدًا، كان الشيخ يردد :

ـ ما أنا إلا حارس، يطرد الغرباء خارجًا.

بينما نحاول إقناع الحارس أننا لن نغادر المدرسة، ظل يردد الجملة اليتيمة التي لا يملها، رأينا باب الإدارة يفتح، جرني أبي من يدي، تسللنا بخطوات سريعة تاركين الحارس وراءنا. انتظرنا لبضع ثوان، ثم طرقنا الباب، حينما سمعنا صوت المدير يأذن لنا بالدخول، فتحنا. وقف المدير من مكانه، اعتذر لنا قائلاً:

ـ آسف على التأخير. لقد أحرجني الأمر كثيرًا. هذا ليس من عاداتي. لا بد أنك السيد إدريس، هذا ابنك ؟

ثم بعد عبارات من المجاملة والإطراء في حق المدرسة وفاس العتيقة وكرم أهلها، سأل مرة أخرى :

ـ ما المقصود من الزيارة السي إدريس؟

علت وجه أبي سحابة من الحزن. ثم قال :

- لا أدري إن كان السيد أحمد قد أخبرك بتفاصيل زيارتنا لك اليوم. لكنني لا أخفيك خوفي على مستقبل ابني. قد حصلت بعض التحولات الأسرية التي أثرت بشكل كبير على مساره الدراسي. حاليًا، بدأت أفكِّر بشكل جدي في إلحاقه بمدرستكم حتى تتسع معارفه بالفقه والعلوم الشرعية. خصوصًا، أنه يحفظ ما تيسر من كتاب الله.

رحَّب المدير مبدئيًا بالطلب. أخبرنا أنه سيسعد أكثر بانضمامي للمدرسة، لكنه عبَّر عن خوفه وأسفه من عدم وجود سرير شاغر بالداخلية. السبب حسب رأيه أننا أتينا في وقت متأخر. لو كنا هنا عند بداية الدخول المدرسي لكان الوضع مختلفًا.

أضاف أنه سوف يستطيع تسجيلي، والبدء في حضور الحصص من الآن إذا ما رغبنا في ذلك، فقط نحتاج إلى التفكير في مكان أقيم به.

خرجنا من المدرسة. اتجهنا إلى منزل العم. لا يبدو والدي سعيدًا بما سمعه من المدير. ثم كيف سيجد لي سكنًا ؟ هو لا يعتقد أنني قادر على ذلك. بل حتى وإن امتلكت القدرة على السكن في حجرة ما، يشتريها لي بأحد أسطح المدينة العتيقة، فإن أمي لن

توافق على ذلك. ثم إنني أحببت فكرة العيش بمفردي، على الأقل سأضمن هامشًا واسعًا من الحرية، حتى إن كنت لا أدري فيما يصلح هذا الهامش ما دمت أمارس كل هواياتي بمفردي في معزل عن الآخرين.

كنتُ أعتقد أن حرية الخيال هي الأهم. ما دمت أستطيع أن أتخيل كل شيء، بداية بحبال المشنقة التي أضعها على رقاب عابري الرصيف، أو يدي اليابسة التي أصفع بها الوجود على وجهه، كلما شدني إليه بقوة... ذلك كافٍ جدًا كي يرسم البسمة على وجهي، وليعتقد الآخرون أنني أضحك بلا سبب، يا ليتهم يعلمون أن السبب الذي أضحكني هو جهلهم وعجزهم عن فك لغز ما يحمله خيالي من جرائم أرتكبها كقاتل متسلسل وبنشوة.

بعد صمت طويل خاطبني أبي قائلاً :

ـ أعتقد أن مشكلتنا لها حل، سأسأل العم. ربما يوافق على إقامتك في منزله.

لم أنبس بأية كلمة. وقلت مع نفسي، ما جدوى الكلام حينما يكون الخيار منعدمًا. من الحكمة الصمت وانتظار ما ستنتهي إليه القصة.

عند حلولنا بمنزل العم، استقبلنا الرجل بحفاوة. كان ينتظرنا من أجل الغذاء. لكننا بسبب المدير الذي لا يحترم المواعيد وصلنا متأخرين. استأذننا ثم قام بنفسه للمطبخ وأحضر لنا طاجينًا مغربيًا بالخضر، فوقه حبات من الزيتون الأخضر. تفوح منه رائحة لحم مطهو فوق بخار مرق الخضر.

بينما نأكل، أفواهنا ممتلئة عن آخرها، بدأ الرجل وأبي يتحدثان عن العمل وليبيا، وإذا كنا سنستقر بشكل نهائي بالمغرب..
كان أبي يتحدث. أحيانًا، تخرج الحروف من فمه مجروحة غير متماسكة، يصمت لثوانٍ حتى يبلع ما بفمه، ثم يواصل من جديد حديثه الذي لا ينتهي.

بعد كل تلك الثرثرة الطويلة، ها هم الآن يتحدثون عني. أخبرنا العم أنه كان يتوقع عدم حصولي على إمكانية السكن بداخلية المدرسة، هي من أهم المؤسسات العتيقة بالمغرب، طلبات الالتحاق بها غالبًا ما تشمل كل ربوع المملكة. بالتالي، الأسبقية في السكن للقادمين من المدن والقرى البعيدة. على الرغم من ذلك، بحكم العلاقات التي نحظى بها، كان من الممكن جدًا أن أكون من بين الطلبة المحظوظين الذين يستطيعون الحصول على السكن الداخلي. فقط، لو كنا قدمنا إلى المدير في بداية الدخول المدرسي...

بينما العم يتحدث، كان أبي ينظر إليه وعيونه توحي وكأنه ينتظر شيئًا آخر عوض هذه التفسيرات والتبريرات...

لمَّا كان العم في منتصف كلامه، قاطعه أبي :

- ما العمل الآن يا دكتور أحمد ؟ إنني أعتبر قاسم ابنك قبل أن يكون ابني. ما دام سيدرس العلوم الشرعية، من الأصلح له أن يكون بجانبك، وأن يتخذك قدوة ومنهاجًا له... أم لك رأي آخر يا عم؟

علت وجه العم ضحكة صامتة، ثم وضع يده على كتف أبي وقال:

- إنك لا تدري كم من الحب أكنه لقاسم، وإني أجد فيه رجلاً عالمًا، فقيهًا، ستفخر به الأمة، بحكم ذكائه ونباهته. زيادة على أصله الشريف، إنني لا أجد إلا أن أبشره بمستقبل واعد. لكنني أجد نفسي مضطرًا للاعتذار منك، قاسم يحتاج إلى فضاء خاص به، الأمر الذي لا أستطيع أن أوفره له هنا، أنا دائم السفر. أحيانًا يكون عندي ضيوف كثر، وفي مناسبات مختلفة. لذلك، أقترح أن تصحبه معك حين عودتك للقرية. في السنة المقبلة، سيكون من أول الطلبة بالداخلية، من الأنفع له استغلال وقته في حفظ القرآن استعدادًا للعام القادم.

عدنا إلى القرية في نفس اليوم. كان والدي غاضبًا، والحيرة تنطق عن لسان حاله، ها هو الآن يشعر بثقل المسؤولية الجسيمة التي يحملها على عاتقه . كنا نحن الأسرة التي تقاوم وتعمل جاهدة على شمل شتاتها في معترك من الخيبة والضياع. لكنه كان ولا يزال، الأب الذي منحني الكثير. كل هذه الإنعطافات التي عشتها آنذاك، لا أنكر أنها ساهمت في بناء شخصيتي وجعلتني الإنسان الذي يؤمن بنفسه إيمانًا قويًا وعاليًا.

لقد كان أبي، لنقل بكل مركبات النقص والقوة التي ميزت شخصيته، ولعلني لا زلت أعترف أن نقطة الضعف القاتلة لوالدي هو حبه الشديد للدفاع عن حقوق الإنسان وتخصيص أكثر وقته لمؤازرة الفلاحين والعمال بدل عمله في العيادة التي كان يغلقها لحضور محاكمة أو اعتصام أو إضراب، بل كان يقتطع أحيانًا من مصاريف البيت لأجل تخصيصه لإحدى الجمعيات أو أحد المناضلين. لقد كان الصديق الوفي الذي كنت أشعر وأنا بجانبه بالأمان. مع كل تلك العاطفة الجياشة التي كانت تصدمني بقسوتها، وتقف في وجه هلوساتي الطفولية التي كنت أعيشها على مضض... كان هو الشخص الوحيد الذي يشعر بما في داخلي من حمم منصهرة، تملأ تجاويف عقلي الباردة، وتحملني إلى حضن حي ودافئ. لذلك، كلما اشتد

بي ضيق التنفس، واحمر وجهي من شدة المشاعر بداخلي أو انحسارها، كان يشدني إليه بقوة ويقول :

- بُني، حينما تصبح أبًا، ستدرك قيمة الأحاسيس التي أكنها لك. يجب أن تعلم بأنه لا يوجد شخص على هذا الكون يرضى لأحد آخر أن يكون أفضل منه، إلا ابنه.

كانت هذه الكلمات بما تحمله من أنانية، أو لنقل إن القيمة التي تحملها، تمنحني الطاقة والرغبة في سماع نصائحه، وإتباعها بالحرف ولو لمرة واحدة. كنت أحاول جاهدًا أن أجعل من كلامه واقعًا حيًّا. أترجم كلماته إلى حياة معيشة. لكن، رغم محاولاتي المتكررة، لم أفلح إلا في شيء واحد.. كنتُ أتقن التظاهر بها.

والدي تجربة حياة ونضال عتيقة. عاش محنة الاعتقال السياسي مرات عديدة. اشتغل وكافح من أجل مطالب وحقوق الفلاحين والطبقة العاملة. كان من أشد المعارضين لنظام الحسن الثاني الراحل. أعلم أن أبي رجل مسلم حداثي منفتح، لكنه كان يكره التيارات الإسلامية والجماعات الدينية المتطرفة. غير أنه لا يمكنني أن أفهم لماذا اختار لي أن ألتحق بدور القرآن دون أن أقف عند مقولته التي كنت أمرُّ عليها دون فهم أو اعتبار في ذلك الوقت :

- بني، اقرأ القرآن وخالط الإخوة في الله.ستكتشف الكثير بنفسك.

خلال حرب أمريكا على أفغانستان، وبعدها في العراق، كان من المعارضين للحرب. وحينما تأزم الوضع بالعراق، كان من الذين سجلوا أسماءهم للالتحاق بالميادين للقتال جنبًا إلى جنب مع جنود حزب البعث. تحول منزلنا يومها لمأتم جنائزي حينما اطلعنا على الخبر. كنا حينها في ليبيا، وبدأنا نجمع الترحال لنعود للمغرب دون أب. عدد كبير من الليبيين ساعدتهم الدولة على السفر نحو العراق للقتال. لم نتنفس الصعداء إلى بعد أن سمعنا قرار رفض إلحاق أبي بالحرب. كان تبرير القرار كالآتي:
ـ شخص ذو عائلة والأسبقية للشباب الأعزب.

كان أبي يعتبر أن التطرف ليس بن لادن وحده. والمشكل الذي يهدد السلم بالعالم ليس تنظيم القاعدة. كان يجد في التطرف انعكاسًا، ردة فعل ضد سياسات أمريكا والغرب الذي يدعم الأنظمة العربية الدكتاتورية فوق مائدة المصالح الاقتصادية. كان يؤمن أن العالم العربي والإسلامي في ظل هذه الظروف، يستطيع أن ينتج آلاف النسخ من بن لادن.

حينما أعدم الأمريكيون صدام حسين، كنا بالمغرب. عمَّ بيتنا حزن كبير. أعلن والدي الحداد لمدة أسبوع. ورفع علم الجمهورية العراقية فوق منزلنا.

* * * * *

القرارات في هذا البيت، غالبًا، ما تتخذ بشكل فردي وسلطوي. لكن، هذه المرة، وليس على عادة من الجد، هو الآخر يبدي اهتمامًا بما يدور بيني وبين أبي هذه الأيام. بمجرد عودتنا من فاس، وعلمه بما دار هناك. بادر بدعوتنا إلى مائدة العشاء. راح يحدث أبي عن الرضا بالقضاء والقدر، وأنه حتمًا هنالك حكمة ربانية في كل ما حصل ويحصل. لا يجب القلق. لا يجب استهجان مشيئة الله. هنالك أشياء نكرهها، لكن ما نلبث ننتظر قليلاً، حتى ندرك بأن وراء الأمر نعمة كبيرة، ما كنا لندركها لولا الصبر.

كان حديثه بالنسبة لي، كخطبة مملة ووعظ كلاسيكي يلقى بالمساجد. أما أبي، فقد كان غارقًا في بحر الهموم بسبب كل هذا الغموض الذي بات يلف مستقبلي.

تقدمتُ للطاولة بعد أن كنت في وضعية لا تسمح لي بالمشاركة في الحديث...

- هل أفهم من كل ما حصل اليوم، بأنني حقًا سأقضي العام كله بالبيت دون مدرسة؟

- ومن قال ذلك ؟ طبعًا ستدرس وستتعلم الكثير. لقد طلبت من إمام المسجد أن يلحقك بدار القرآن التي يدرس بها ابنه.

حينها، فهمت تمامًا ما كان يقصده العم بكلامه، عندما قال سيكون من الأنفع لي قضاء هذا العام في حفظ القرآن...

مصادفة عجيبة، جعلتني أشك. كأن وراء هذه الكلمات مؤامرة مسبقة بكل التفاصيل التي وقعت اليوم ...
نعم، من الممكن جدًا، أنهم اتفقوا سلفًا دون علم مني. أبي أيضًا يبدو راضيًا بهذا الاقتراح الذي تلفظ به الجد. لا أدري لماذا يعتبره كذلك، ما دام هو الشيء اليتيم والممكن. لكنني شعرت لحظتها بكآبة حادة. خرجت مهرولاً تاركًا الاثنين معًا.

إنني أدرك جيدًا ماهية الحقيقة التي هي سبب كآبتي.
أدرك أنني مهما حاولت أن أكون فلن أفلح في تغيير مجرى الأحداث التي لم أخترها يومًا.
كنت أعلم أنه قريبًا جدًا، سينتهي بي المطاف بدار القرآن.
لذلك كنت أحاول أن أتقبل الوضع، وأن أجانب التفكير في ذاتي التي أعدمت وقطعت أوصالها بسككاين صدئة أمام حضور الأب.

رحتُ أفكر في هذا الأب القاسي.
أشرحه أمامي وأفصل روحه وعظامه.
لن أطيق العيش مع والدي بعد اليوم.
لن أتحمل مزاجه العصبي إذا ما بقيت بجانبه طيلة السنة.

هو متقلب المزاج، سريع الغضب، خيرٌ جدًا حد الشر...
لن أتحمل صراخه وغضبه اليومي الذي يعرف جيدًا كيف يهدم أحاسيسي وأفكاري.

بدأت ببطء شديد أستسيغ طعم هذه المغامرة الجديدة التي سأعيش تفاصيلها قريبًا.
بدأت أتطلع بشوق بائس إلى دار القرآن، كل ما كنت أفكر فيه هو أن أقوم بشيء ما. أي شيء. لا يهم ما هو، بقدر ما يهمني أن أخرج من البيت الذي مبنية ركائزه بترسانة من القوانين والأعراف التي كرهتها بشدة. لقد كنا نعيش كلحمة واحدة، لعلها ميزة ورثناها من تجربة العيش بالغربة.

في كل مساء أعود متأخرا للبيت، تكون جملة كثيفة وأثيرة لوالدي التي تترجم القوانين. إنها مقولة أبي الشهيرة التي لا زالت تحتل جزءًا كبيرًا من ذاكرتي. ما زلت أرتجف كل مرة أفكر فيها. إنني أرتجف منها الآن أيضًا بعد كل هذه السنوات، وأنا أتخيل وجه أبي بملامحه القاسية وصوته المجلجل:
- اسمع يا ولد، حينما تستقل عني كُليًا. حينما توفر كل حاجياتك، وتصبح رجلاً يعتمد على نفسه. آنذاك يحق لك أن تصفعني عندما أسألك أين أو مع من كنت.

• • • •

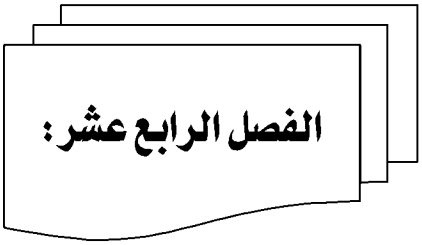

دار القرآن .. مرة أخرى

بناية تحت أرضية معتمة.
رائحة المسك، أصوات الطلبة، مكتبة سوداء، ألواح خشبية مسندة عند المدخل وقطع من صلصال... أمام الدار ثلاث نخلات وسياج محاط بالقصب والحشائش. على الجانب الآخر، بناية مهجورة يسكنها مدمنو السليسيون. أطفال مشردون يضاجعون بعضهم البعض.

يفتح باب الدار. نجتمع حول مائدة الأكل. نسمع أطفال الشارع يسبون الله، أحدهم يتوعد زميله :
- نشدك نيك ربك.

في أيام الجمعة، قبل أن نستيقظ، تزورنا فاعلة خير. تترك أمام الباب طعامًا ثم ترحل. في الأيام الأخرى نجد قنينات جعة خضراء فارغة شربها أعداء الله . نجمعها باحتقار تام لأنفسنا. أحيانًا، تكون بعضها مملوءة بالبول.
نقذف بها بعيدًا.

نعود للصلاة جماعة.
أسجد. أطيل السجود.
يهزني صديقي بمعصمه.أستيقظ مفجوعًا.
لا أدري كم ركعة صليت.

ينهي الإمام الصلاة. تسرقني خطواتي بعيدًا.
أختفي إلى زاوية. ثم أسند رأسي إلى الحائط. أنتظر الشروق..
- لا نوم هنا، احفظ بسرعة.

نكرر السور تباعًا. دقائق معدودات للأكل، ثم عودة للحفظ. آيات كثيرة عن محنة الإيمان والشيطان، عن القوى الشريرة القادرة على إنزال عقوبة الإعدام، عن روائح السادية المقدسة.. عن اللاحياة.
كل الجدران سوداء..

الشيخ يرفض هندامي الإفرنجي. يطلب من أحد الطلبة أن يصحبني إلى سوق الملابس التقليدية. يشترون لي قميصًا طويلاً وسروالا فوق الكعبين. لباس كالذي يلبسه مقاتلو حركة طالبان.
أخذوا مني كل سروايلي، وأرجعوها بعد أيام منقوصة الطول.
لا ثوب تحت الكعبين منذ الآن.
لا قبعات شمسية، أو وزرات ملونة.
ساعة اليد المسكينة، ربطوها حول معصمي الأيمن : يجب أن نخالف الكفار في كل شيء..

عندما كنت أحاججهم :

- لماذا تستعملون مكبرات الصوت، وهي صنيعة الكفار؟. أنتم تحرمون كل شيء منهم. هؤلاء الكفار وصلوا إلى القمر.

بنبرة كراهية أجابوا :

- أخبار بني إسرائيل لا تصدق ولا تكذب. لن نؤمن بهذا الخبر حتى يصل هنالك مسلم.

كانوا يكرهونني أكثر، وأكثر.

قائمة طويلة من المحرمات. تذكير متآمر بمكائد منكر ونكير. نحن الخاصة والآخرون هم العامة. هنا الحقيقة وهنالك الظلال. لا نقاش مع الآخر إلا لإقناعه أو ضرب عنقه. إما أن تكون معنا أو ضدنا. لا ألوان. لا اختيار. نقف أمام الضالين في كل العالم. الذي يخالفنا الرأي، نعامله بالدعوة، وطبعًا الدم ثانيًا.

حينما نتواصل مع الآخر، هو في قاع البئر.

بينما نحن في قمة الجبل.

لابد أن نواجههم جميعًا. إما أن يستسلم أو نفتي بالقتل.

نقوم بذلك، دون أن يأخذنا الشك في أننا نحن الناطقون الرسميون باسم الله.

لا نؤمن بالاختلاف. إذا وجدنا شخصا لا يعزف على الأوتار التي نؤمن بها، هذا يجعله كافرًا، خبيثًا، حقيرًا، وفوق كل هذا: عدوًا.

فهم للنصوص. حفظ لكتب محمد بن عبد الوهاب. حفظ وحفظ وحفظ.

أتذكر أول الكتب التي ألزموني بحفظها. لم تكن القرآن، أو الحديث النبوي.يضع الشيخ أمامي الكتاب الأصفر صغير الحجم:

- هذا أمر هام. الإيمان الصحيح لا يتم إلا بالعقيدة السوية. يجب عليك حفظ الأصول الثلاثة لشيخنا العلامة محمد بن عبد الوهاب. كتاب صغير. لكن نفعه لن تدركه إلا وأنت في القبر. يوم سيسألونك : من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟

يقول الشيخ.

الشهور التي قضيتها بين السلفيين، جعلتني شابًا ممتلئًا بالحقد، كارهًا للحب. حاولت مرات كثيرة أن أغير ما أراه منكرًا بيدي الضعيفة.

حطمت كل شرائط الموسيقى.عوضتها بخطب الدين التي تصف أهوال يوم القيامة.

أخبرت أمي :

- التلفاز حرام. الخروج إلى السوق دون محرم حرام. مصافحة الرجل الأجنبي للمرأة حرام...

وأرغمت أختي بنت الربيع الثامن على لبس الحجاب.

كنت أصلي بلا وضوء. كان اليقين من عدم وجود الله يجتاحني. لكنني كنت أجد نفسي أفعل ذلك، وأنا عاجز عن معرفة السبب الحقيقي. كنت أشاهد أفلام البورنو عندما ننزل إلى مقهى الإنترنت بدل مواقع الجهاد وأناشيد الإسلام التي كان ينصحنا بها الشيخ.

بعد فترة، اكتشفتُ أن أحدهم يشاهد أفلام البورنو أيضًا.

إنه نفس طالب مدرسة القرآن التي أرتادها.

فيما بعد، أصبحنا نشاهدها معًا، بدل أن نشاهد القرآن.

نتبادل المعلومات عن تلك المواقع الإباحية في هالة من السرية.

عمومًا، لقد كانت أكثر حياة وعُمقًا من صفحات الدين الميتة والكريهة.

معظم الأحاديث في دار القرآن عن اللواط في المدارس القرآنية الأخرى، المدارس التي تختلف في منهجها عن الدار التي أدرس بها، مثل دور قرآن الصوفيين، أو دور الدعوة والتبليغ.

لقد كانت تحلق مخيلاتنا في فنتازيا إيروتيكية.

كنا نطلق العنان للصور الخلاعية. الشيخ الفلاني ينكح تلاميذه.

كانوا يقولون لي :

- إنك محظوظ، لأنك معنا. لو كنت بمدرسة أخرى لفعلوا بك اللواط.

أتذكر الدجاجتين التي كنت أحملهما من منزلي، حينما أذهب في العطلة الأسبوعية أتذكر اللوز والتمر، وأنا أفرقه على الطلبة.
كنت أقول :
- خذ يا أخي في الله.

لكن إخوتي في الله كانوا بمجرد أن تنتهي الدجاجتان حتى يهجرونني من جديد. كانوا يكرهونني لأسباب كثيرة. أحدها أنهم ضبطوني ذات يوم أريد الصلاة في الفجر دون وضوء.
كنت عادة أصلي بلا وضوء. لكنهم اكتشفوا سري ذلك اليوم.
اعتذرتُ شارحًا :
- إنني مصاب بالنسيان الحاد بعد أن أستفيق مباشرة. يلزمني الوقت كي أتذكر.
رغم أن الشيخ لم يفعل معي شيئًا، بعد أن عرف بسري، إلا أنها تمادت كراهيتهم لي.

كانت كُنيتني أبو حمزة. كانوا يهجرون حتى الأسماء المعتادة. كل واحد منا أصبحت له كُنية جديدة.
أبو حمزة هذا هو أنا.

لكثرة الضغط والقسوة التي كانت تمارس داخل الدار، أحد الإخوة في الله، أدمن الحشيش سرًّا. ومن السر انتقل إلى العلن.

أصبح يأتينا يهلوس حول عوالم وأشياء لا نفهمها. نطرده أحيانًا، ونشفق عليه أحيانًا أخرى. لكن كان من الذين رفع عنهم القلم. لقد أصبح مجنونًا بالكامل.

قبل أن يحل به الجنون، أعرته شريطين من مصحف مرتل. اشتراه لي أبي من ليبيا، للشيخ محمد الدوكالي، برواية قالون عن نافع. حاولت جاهدًا أن أقنعه بضرورة إعادة الشريطين لي. لكنه لم يفعل. في كل مرة، كنت أحاول إقناعه، كان الجميع يعتقدون أنني أنا الأحمق وليس هو..
تبًا. لقد فقد أخونا في الله عقله، وفقدت أنا الشريطين.

حينما كنت أتوجه إلى الصلاة، لم يكن يخطر ببالي من يكون الله.. ولماذا هو هنا.
لم يكن يخطر ببالي أي شيء، أي شيء عن الملائكة والشياطين.
كانت مجرد حركات قيام وسجود أو حركات رياضية.
أمارسها بمشقة. كانت روتينًا يتكرر طيلة الأيام.

للرياء، كان لزامًا صلاة الشفع والوتر بعد العشاء. أما في رمضان فصلاة التراويح التي كنت أساعد إمام المسجد في أدائها رفقة زميلين لي بالدار. نعم، هي الأخرى صليتُها بلا وضوء.

كانت بالنسبة لي حركات فارغة من أي إيمان.
لكن وجدتُ فيها تلك الحمية التي تشعرني بالانتماء إلى مجموعة ما.
لعل هذه الحمية، هي ما يفسر التطرف والعداء الذي كنت أواجه به من قالوا لي في الدار إنهم العامة.

لم تكن حالتي لها علاقة بالدين، ولا كان الإيمان الذي يدفعني للتطرف. لكنه الانتماء. كنت أدرك أنني لا أنتمي إلى أي مكان مطلقًا. كنت أبحث عن الانتماء أكثر من إلى أي شيء يجب أن أنتمي.

سنوات الغربة مع الأهل بالخارج. عدم وجود صداقات في حياتي، أو حتى علاقات مفتوحة. محيط الأسرة الهائج...
جذور المستقبل الذي سأواجهه فيما بعد.

• • • •

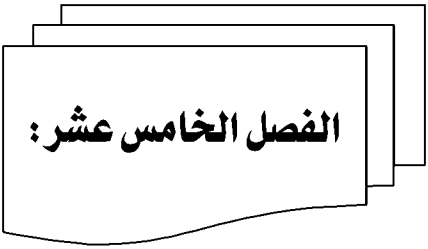

الفصل الخامس عشر:

العودة إلى الحياة

مضت شهور على الالتحاق بدار القرآن. ما عادت لي القدرة على الاستمرار؛ دوار وصداع مزمن يقلق أيامي. ربما، أحتاج إلى بعض الوقت للراحة بالبيت. طلبت إجازة لبضعة أيام. حملت كل متاعي وغادرت إلى القرية، كأنني كنت أعلم أنه الرحيل الأخير الذي لا تليه عودة أثقلت ظهري بالدجاجتين والتمر.

يصف الطبيب أنواعًا من الدواء. يخبر أبي أنني مصاب بفقر الدم. جسدي الفتي لم يحتمل لعنة الدار العاصفة. ساعات قليلة للنوم، سوء التغذية، إكتئاب حاد.. ونفاق يومي.

أعود للبيت مثقلاً بهمٍّ أسود كبير. شعرت كمن يغرق في بئر عميقة من الصمت والعزلة. كنت دائم التأمل والتفكير في كل ذلك الوقت الذي قضيته بدار القرآن. فكرت برهة. ماذا لو لم يصبني المرض. هل كنت سأستلم لهذا القدر الملعون، هل كنت سأجد نفسي مرابطًا مع الإخوة في الله بالجبل الآن ؟ كل واحد منا، كان يعلم أن الإقامة هناك، ما هي في الحقيقة، إلا مرحلة إعداد لما هو قادم.

خمسة عشر طالبًا كلهم سيرسلون إلى خمس عشرة نقطة.
مهمتنا أن نغير العالم الذي نكرهه. أن نجعل من الجميع يرفع رايتنا. من كان يعلم ما سيحدث حقًا بالجبل ؟... لا أحد.

سمعت مرة أن هنالك معسكرات للتدريب. تديرها خلايا جهادية، حتى هنا، كل شيء محاط بسرية تامة... قال لي أحد الإخوة في الله :

ـ المحظوظون فقط من يمنحون تأشيرة المرور لذلك العالم.

* * * * *

وضعت اللباس الطالباني في خزانة الملابس البالية. قلت مع نفسي، لا حاجة لهذا الثوب هنا. كم أشتاق إلى سراويل البلودجين. أريد لباسًا آخر ينسيني أيام الدار الكئيبة.

كنت كدودة القز. أنبعث من نفسي، جسدًا آخر. أبسط جناحي الفراشة السجينة بداخلي. أعانق شعاع الشمس مع آخر شرنقة.

خرجتُ إلى السوق. ترددت كثيرًا وأنا واقف أمام زجاج أحد محلات الملابس العصرية. لم أستطع مقاومة جاذبية الألوان والموضات المختلفة للسراويل والأقمصة المزركشة بالصور والرسومات.

اشتريتُ بنطلونًا وقميصًا. لم أغادر المتجر قبل أن أرمي الملابس البالية. وقفت أمام المرآة أتأمل شكلي الذي لم يعد مألوفًا حتى لي.

بدأت الحياة تدب من جديد في جسدي. كنت بالأمس مريضًا، شاحب الوجه، يابس القلب.. هناك، مرميًا بين الركام البشري. أجثو بكل ثقلي على هذا الحاضر اللعين، أتمادى من جديد في شد الحبل الذي يكسر ضلوعي واحدة تلو الأخرى. كيف لي أن أصارح نفسي. أن أكتب سيرة هذه الأيام.. أن أراقب الله وهو ينحر نفسه، دون أن أتحرك محاولاً سحب عنقي من تحت المشنقة.

هل الله هو انعكاس لنا ؟ هل الله فكرة نعلق عليها بؤسنا ؟ كيف لي أن أصارح نفسي ؟ أن أقولها بصوت مسموع : أنا كافر.
أنا كافر.

نقاش سوريالي مع أبي، سوف يفضي إلى تسجيلي بالإعدادية مع بداية العام الدراسي الجديد.

لن أعود لدار القرآن...
قرار لم يكن سهلاً، لولا صراخ أمي وهي تبكي:
- أبدًا لن يعود ابني لتلك الدار. ألا تذكر كيف عاد آخر مرة، وهو على وشك الموت، عظام يغطيها الجلد؟!!

سعدت بالقرار، وإن كنت أعامل كل من حولي بعبثية مفرطة. طبيعة الماضي علمتني أن أكون قابلاً للعيش في كل مكان. لكن،

في الآن ذاته، كنت أحن للعودة إلى حجرات الدرس، بين الأصدقاء المشاغبين والظريفين. أحن إلى دروس التاريخ والجغرافيا. علي أن أفهم معنى كل هذه المسافات التي ما زلت أجتازها... نعم إنها المدرسة.

كنت تلميذ الاستثناء. رغم شهادة المدرسين على ذكائي، وقدرتي على الفهم، إلا أنني كنت بحاجة لمراجعة فردية لأساسيات الرياضيات والعلوم الطبيعية حتى أتمكن من مسايرة زملائي. فترة انقطاعي عن المدرسة، كان لها أثرها في كل هذا.

عادة أستعين بعمي الأكبر. يساعدني على فهم ما فاتني من الدروس. كنت أزوره مرة أو مرتين من كل أسبوع!

لقبَّه جدي بـ : كبير. لأنه كان بكر أولاده.

كبير عاش هو الآخر طفولة صعبة، أكثر شقاوة مما يمكن أن تتصوره. لا يوجد مجال لأقارن نفسي به. ربما أشاركه شيئًا ما، قد يكون فلسفة إرادته القوية في الحياة.

كان يحب أن يروى لي ذكريات طفولته. يتذكر كيف كان يخيط سرواله المثقوب من المؤخرة، بسلك كالذي يستعمل لتبن الحصاد. ثم يرتدي معطفًا شتويًا طويلاً فوقه ليستر عورته. حينما تتورم قدماه، وتسكنها قطع الحصى، كان يلجأ إلى مزبلة

حي البساتين بمكناس. يختار زوج أحذية؛ خفين ليسا من نفس العائلة. يجتاز بهما اثني عشر كيلو مترًا ذهابًا وإيابًا بين المدرسة والبيت كل يوم..

كبير أنهى دراسته إلى أن حصل على وظيفة بالمكتب الوطني للسكك الحديدية. غير أنه بعد زواجه وإنجابه لطفلتين، قرَّر أن يتقدم بطلب للتقاعد النسبي من الوظيفة العمومية، حتى يتابع دراسته مع جامعات أجنبية عن طريق المراسلة. حصل بعدها على دبلوم في الإلكترونيك، وفتح محلاً بالقرية لإصلاح الأجهزة الكهربائية المنزلية.

كان يحكي لي عن سنوات نضاله ضد الملك الراحل الحسن الثاني. أخبرني عن الماركسيين، قال لي إنهم أعداء أخوتي في الله.. محاولة جيدة لاستفزازي. هو يعلم أنني لم أعد مع الإخوة في الله. لكنه، ربما يتذكر يوم طلبت منه أن يغلق التلفاز.

يسألني متعجبًا :

- لماذا؟

رددتُ غاضبًا :

- الفيديو كليب شيء شرير.

هل كان العمُّ كافرًا ؟ شيء ربما يصعب البوح به هنا.. لكن، من الأكيد أنه كان كافرًا بالإسلاميين!

كتب كارل ماركس وصور الرفيق تشي كانت دائمًا تزين مكتبته، بل يضعها في الواجهة.. أحيانًا، كان يهديني كتبًا عن الثورة والعمال والصراع الطبقي. مرة قال لي :
- قاسم.. لقد حفظت الكثير من القرآن. أنا أيضًا أحفظ، لكنني حفظت البيان الشيوعي حينما كنت في عمرك.

نعم. عدتُ للمدرسة. لكن هذه المرة، بدأت أنتقل بين الزوايا، قبل أن أعالج الأشياء التي أقف عندها، محاولاً النفاذ إلى العمق. إلى جوهر الوجود إن كان حقًا هنالك وجود يتسع لما بداخلي من حياة.

فعلاً! اليوم أنا مقتنع حد الجنون أنني لا يمكن أن أكون مؤمنًا. ربما لأنني لا أومن إلا بما أجد أنه فعلاً يستحق الإيمان. أريد هذه المرة، أن أكون مختلفًا، أن أكون أنا.. رغم اختلافكم جميعًا عني. أن أعيش لحظات إيماني بعيدًا عن المؤمنين والسكارى الذين يتبولون عند أبواب الحانات في النصف الثاني من الليل. بعيدًا عن صفاء، العاهرة التي هاتفتها في تلك الليلة الباردة لتؤنس وحدتي. غير أنها لما شربت كأسًا من دم المسيح،

غادرت، قبل أن نغرق في بحرينا عُراة، حُفاة، مقطوعي الأوصال... هي لم ترغب في الذهاب، لكنني فتحت الباب وهمست لها :

- صفاء مع السلامة. في المرة القادمة، أحضري معك عازلاً طبيًا.

نحن أكبر من الأحلام، أم الأحلام هي التي أكبر منا ؟

نحن أكبر من كل هذه الوجوه المُلقاة في مضمار الحياة.

همنا أكبر من كل ذلك كله. أكبر من التاريخ بكل أزمنته وعصوره. هل حقًا هنالك ما هو أكبر؟ ربما. لكن يبقى همي أكبر من كل شيء.

أستطيع القول إنني اجتزتُ الكثير، أو جزءًا من الكثير. لست وحيدًا في هذا العالم. على الأقل، بالمدرسة، سوف أجد من يشاركوني نفس الحلم. أسَّستُ ناديًا لحقوق الإنسان رغم كل الإكراهات. أحيانًا أشعر أن الكل يحاول إحباطي. الإدارة لا تسمح لنا بعقد أنشطتنا. حتى في حالة السماح، ما سنقوله يجب أن يمر على مكتب الحارس العام حتى يحظَ بموافقته. غالبًا لا يوافق.

في أحد الأيام فكّرتُ أنا وزميل لي بالفصل، أن نعد لنشاط ثقافي. جلسنا، فكرنا مليًا فيما سنحتاجه. أشياء بسيطة لا تكلف الكثير.

قلنا لماذا لا نطلب من المدير المساعدة ؟ لا عيب في المحاولة. لكن، كما كنا نتوقع. الإدارة دائمًا تحاول إحباطنا. تعمل جاهدة على إخماد الطاقة التي تدفع خطواتنا..

أتذكر أن إصرارنا على إنجاح مشروعنا، كان أكبر مما تصورناه. قلت لزميلي:

ـ لماذا لا نبحث عن عمل، ولو ليوم واحد؟

فكرة عبقرية ! سيكون ذلك كافيًا جدًا، لنحصل على ما نحتاجه من المال. بضع دراهم تكفي. هنالك وثائق نريد نسخها. العرض لن يكون تامًا دونها... لم يكن أمامنا إلا خيار واحد. كيف ؟ هنالك أعمال حرة كثيرة بالقرية. أجل نستطيع العمل.

اتفقنا أن نلتقي نهاية الأسبوع للعمل بورشة للبناء. قضينا اليوم كاملاً نتصبب عرقًا تحت أشعة الشمس الحارقة. ننقل حجارة البناء، وأكياس الإسمنت عبر أدراج شاقة. ننقلها من أسفل إلى أعلى. أحارب نفسي والتعب بالقليل من الشعر. يحضرني الآن البيت الشعري المشهور لأبي القاسم الشابي:

ومن لم يستطع صعود الجبال يعش أبد الدهر بين الحفر

وما أجمل أن أسمعه يخرج من لسان أبي.

سألني صديقي وهو يتصبب عرقًا:
- لحظة يا قاسم، هل ما نقوم به هو الصواب؟

أجيبه :
- إن كنت تراه صوابًا، فهو كذلك.

أجرة هزيلة جدًا. ما يقارب العشرة دولارات. خمس دولارات تكفينا لنسخ المطويات اللازمة. خمس دولارات أيضًا تكفي لكل شيء أو لا شيء.

بحب كبير رتبنا كل ما نحتاجه. كنا مهووسين جدًا بما نقوم به. شعرنا بسعادة جارفة. إحساس لا يمكن وصفه. قلنا بصوت واحد : إنه عمل رائع..

ذهبنا سويًا إلى مكتب الحارس العام. عرضنا أمامه الورق المبلول بالعرق الذي لم يجف بعد، من على جلدنا المحروق. ننتظر بلهفة موافقته؛ التشجيع؛ ربما الثناء على مجهودنا الجبار أيضًا.. أخذ الملف بكل وثائقه. رمى به إلى درج المكتب. ثم طلب منا العودة بعد يومين، حتى يتمكن من مراجعة كل شيء.

عدنا كما طلب منا، بعد يومين من الانتظار..
الأمل بداخلنا يقاوم كل إحباط. ثم الصدمة. بعد كلام بلا معنى، أخبرنا أن المدير لم يوافق على الترخيص. تساءلنا بغضب

ودهشة عن السبب. نشرح الوقت والجهد الذين وضعناهما خصيصًا لهذا العمل ! دون جدوى. لقد ماتت الفراشات.

شعرنا أن كل الجهد ذهب مدرج الرياح.. اختفى. عاد من حيث جاء، للعدم.

لم تبقَ بجيبي سوى خمس دولارات. قبل الآن، فكرنا في توفيرها لنشاط آخر. أي نشاط ؟ لم نجد شيئًا يطفئ ما بداخلنا من الغضب. كنا نحترق.

توجه صديقي إلى بائع كحول يعرفه. بضع قنينات من الجعة مقابل الخمس الدولارات المتبقية. حملناها في سرية تامة. وضعها صديقي بحقيبته. ثم اختفينا بعدها عن الأنظار. ركنا جسدينا إلى وادي القرية حيث السكارى، نحن لسنا مثلهم، من يدري؟ لكن لا بأس...

شربنا، لعنا كل شيء، قهقهنا، شتمنا المدير وأم المدير، قلنا إنه ابن قحبة. تمنينا قتله.. وقبل أن نغادر الوادي، تبولنا على جذع الشجرة التي كنا نجلس تحت أغصانها المحروقة.. ومضينا.

المدرسة. كانت بالنسبة لي دائمًا واحدة. أسوار عالية، باب حديدي ضخم، وحارس بشارب أبيض ووزرة زرقاء. من قرى المغرب وحتى ليبيا، كانت هذه البناية دائمًا ترعبني. أجد فيها سجنًا. أحيانًا، أتخيلها مصحة عقلية تعالج الأصحاء.

درست بمدارس عديدة. في مدرستي الابتدائية، كانوا يضعون قطع الزجاج المكسور أعلى السور. رأيت الشيء نفسه، حينما زرت مرة أحد الأحياء الراقية، هم أيضًا يضعون نفس الزجاج المكسور على الأسوار المحيطة ببيوتهم. حينما سألت عن السبب، فهمت أنهم يزرعون الزجاج حماية لمنازلهم من اللصوص والغرباء، حقًا ما أكثر المتطفلين ! قلت مع نفسي : كم أنا محظوظ. يجب أن أحب مدرستي، فهي تحميني من هؤلاء الأشرار.

في أحد الأيام غشني النعاس. تأخرت عن موعد الدخول الصباحي، وجدت الباب موصدًا، قلت : ربما أستطيع القفز من أعلى السور. عندما دنوت منه، أدركت أنني اللص الذي تريد أن تحميني المدرسة من جرمه.. تبًا لي.

المجرمون أمثالي يكرهون المدرسة؛ لا نحبها. تافهة جدًا نجدها. هكذا كنت أراها : مزيج غير متجانس من مواد دراسية عجيبة، تكرار واجترار، آه. كم هذا مقرف. لا تختلف كثيرًا عن دار القرآن والإخوة بالله، أكره الفكرة التي تربطني بالمدرسة أكثر من كرهي للمدير !

في المرحلة الثانوية، اختلف الأمر قليلاً. اليوم أول حصة لمادة الفلسفة. كان الدرس رائعًا، لا أنكر أنني استمتعتُ كثيرًا بما قاله الأستاذ عن التفكير المنطقي. عن الحقيقة، النسبية، المنهج والوعي والزمن.. لا يجب أن نقبل أي شيء مهما كان دون إخضاعها للمنهج العلمي الشكي. كانت هذه خلاصة الدرس. بعده، التحقنا بأستاذ التربية الإسلامية. أعلم أنه لم يحبني منذ أول حصة معه. زملائي كلهم يعلمون أنني أرتل القرآن بشكل جيد. سبق لي وشاركت في مسابقات عديدة في رمضان بمدرستي الإعدادية. كنت دائمًا أحصل على جائزة.

الأستاذ يسأل:

- من يقرأ الآيات؟

ينطق الفصل، كل الفصل بصوت واحد :

- قاسم.. قاسم..

يتساءل مرة أخرى :

- من قاسم؟

يجيب أحدهم:

- إنه هناك يا أستاذ. يستطيع تجويد القرآن.

الأستاذ :

- هيا يا ابني، اقرأ.

أردُّ بسخرية :

- ما أنا بقارئ.

- اقرأ يا ولد !

شعرت أنه بدأ يغضب، أرد :

- ما أنا بقارئ.

تعلو الفصل ضحكات صاخبة، كأننا على خشبة مسرحية هزلية..

حتى أجنب نفسي العقاب، أبدأ في قراءة الآيات.

كانت نقاطي جيدة بمادة التربية الإسلامية. ليس لأنني كنت أحب ما أدرسه. بل مجرد فم براغماتي من أجل الامتحان العسير. نقاط أضيفها لأخرى حتى أحصل على معدل جيد.

لا أحب مادة الدين، خصوصًا حينما أقارنها بما أدرسه بالفلسفة، الأستاذ دائم الحديث عن الخوارق. إبراهيم ألقى به قومه في حفرة من النار ولم يحترق !! يقول القرآن: إنها صارت بردًا وسلامًا ! أين منطق أستاذ الفلسفة من كل هذا ؟ أين درس الفلسفة ؟

أسئلة كبيرة جدًا في عقول فتية. أحاول النقاش مع أحد زملائي. يمنعني الخوف. أرفع إصبعي لأقول ما بداخلي... يمنعني الخوف مجددًا. خوفي أكبر مني!

* * * * *

أسمع عن مدونات الإنترنت...

الآن، نمتلك في بيتنا حاسوب واشتراك إنترنت، اقتنى لي والدي واحدًا ظنًا منه أن هذا سيجنبني مخالطة رفاق السوء، كان منزلنا لم يكتمل إصلاحه بعد، لكنه فضَّل شراء الحاسوب حتى لا أمضي ساعات المساء خارج المنزل بأحد مقاهي الإنترنت.

بحث بسيط على الشبكة. أحصل على مواقع كثيرة. أستطيع فتح صفحة خاصة لأكتب ما أريد.. إنه السحر، أجل أريد مدونة!

أنشأتُ صفحتي الخاصة. اخترت لها اسمًا مستعارًا...

ثم بدأت أكتب.

قلت إنني ملحد مغربي. لم أقدم أية معلومات أخرى.

أزور الصفحة يوميًا عشرات المرات.

نشرت مقالي الأول عن إبراهيم، النار، والفلسفة. طرحت السؤال. وأردفته بعلامات استفهام كبيرة.

زرت الصفحة في اليوم الموالي. خمسون زائرًا مرَّوا من هنا، ومشتركين اثنين يودون متابعة صفحتي. أحسست أنه إنجاز عظيم. بدوت سعيدًا جدًا.

فكرت في مواضيع كثيرة كي أكتبها. لا رقابة هنا. أنا حر، أكتب ما أشاء. عداد المدونة يسجل الزيارات. أضحك من هؤلاء الذين يسبونني، يتوعدونني، ثم ينصرفون.
أتخيل نفسي أمامهم وجهًا لوجه. هل كنت حقًا سأقول ما أكتبه الآن هنا ؟! أشك في ذلك.

أنشأتُ مدونة أخرى.. تحدثت فيها عن الثانوية وسورها العالي. عن الطريق الوعرة المسالك التي تتحول إلى صابون من الوحل في فصل الشتاء.. دونت كل ذلك باسمي وصورتي. نشرت بها أنشطتي الحقوقية مع رفاقي بالجمعية المغربية لحقوق الإنسان. نشرت بعض الأغاني لمارسيل خليفة، والأخ أحمد قعبور، والأخت جوليا بطرس، والنسخة العربية المهترئة لنشيد الأممية الشيوعي...

لكن من له بقرائتك يا همومي؟

المدونة الأولى الكافرة حجبت كل الضوء عن الثانية. زوارها يزدادون يومًا بعد يوم. كانت حقًا ناجحة. كنت أنشر بها كل ما أفكر فيه. أحيانًا صورًا كاريكاتورية للنبي محمد، وأحيانًا أخرى مقالات أتحدى فيها الله.. كتبت أنني كنت أخاف من الله. لكنني جربت أنه غير موجود أصلاً، أو ربما تشغله أشياء أخرى، ولا يهتم لأمرنا أساسًا.

كتبتُ أيضًا عن قصتي مع شهر رمضان. كانت أمي دائمًا تقول لي إن إفطار رمضان عمدًا، يعاقب عليه الله بشيء يشبه الجحيم في الدنيا قبل انقضاء الشهر. أردت أن أتأكد بدوري. أكلت تفاحة في اليوم الأول، وشربت كوب ماء في اليوم الثاني. شاهدت فيلما بورنوغرافيا ثم استمنيت في اليوم الثالث. قلت :
- أينك يا الله؟

انتظرتُ بقية أيام الشهر، وأنا أتوقع أن ينزل علي العذاب من السماء. ثم انتظرت طيلة الشهر الموالي. انقضى العام وحل رمضان آخر. لم يحصل شيء !
كرَّرت التجربة، انتظرت أن يحل بي عقاب الله. لكن، أتدرون ما الذي حصل ؟...
طبعًا. لا شيء!

ذاع صيت المدونة بعيدًا...

تعرفت من خلالها على ملحدين مغاربة وعرب. هم أيضًا مثلي؛ لم ينشروا أسماءهم الحقيقية. كنا نقضي أوقاتًا جميلة على الإنترنت. أسسنا منتدى لا ديني. كنا نناقش مقالاتنا قبل أن ننشرها. صرت أمضي جُلَّ أوقاتي رفقة الحاسوب. كل ما أفكر فيه يمكنني طرحه هنا. كل الأعضاء يشبهونني. يختلفون عني بأسمائهم المستعارة فقط ! أحيانًا يطرحون أسئلتي على ألسنتهم! أحس أنهم أصبحوا أقرب لي من أسرتي!

* * * * *

استيقظتُ ذات صباح على روتيني المعتاد. أول شيء أبدأ به يومي، قراءة رسائلي الإلكترونية، وتصفح بعض مقالاتي المنشورة بالمنتدى اللا ديني، ثم متابعة تعليقات الأعضاء واستفساراتهم. غير أن هذا الصباح ما أزال أتذكره جيدًا. لم أتمكن أن أقوم بكل ذلك. لقد استوقفتني رسالة جمدت الريق بفمي. تهديد بالقتل، مختلف تمامًا عن بقية التهديدات الأخرى. إنها المرة الأولى التي أتوصل بتهديد يحدد عنواني، اسمي الحقيقي، ورقم هاتف منزلنا... مستحيل !

لا يمكن أن يحصل هذا !

لا بد أن هنالك خطأ ما ! إنهم يتوعدونني بالقتل. يقولون :

- موعدنا المجزرة، الحاجب.

الحاجب، المدينة التي أرتادها باستمرار. قالوا إنني سأُنحر كما تُنحر خراف العيد! من هم ؟ من يكونون؟ كانت هنالك مؤشرات كثيرة تدل على أنه تهديد يجب التعامل معه بحذر شديد.

نقلتُ الخبر لأصدقائي الملحدين بالمنتدى. بدا لهم الأمر خطرًا. طلبوا مني أن آخذ كل الحيطة والحذر..

لم تمضِ إلا أيام قليلة، حتى وجدتُ صورتي، مرفوقة برابط المنتدى والمدونة. لقد نشروا على إحدى صفحات الفايسبوك كل معلوماتي.

أدركت ساعتها أن الأمر بات خطرًا. لحسن حظي، زملائي بالمدرسة لا يعلمون عن الموضوع. كل شيء في بدايته !

اقترح علي أحد الأصدقاء اللا دينين أن أطلب المساعدة من أحد الجمعيات الحقوقية. لكنني صُدمت حينما تنكر لي رفاقي الحقوقيون أيضًا. أجل، منهم من تضامن معي. لكن، ما كنت أريده هو أن يقفوا بجانبي. أن يدعموا حقي في أن أعبر عن رأيي من الإسلام ! كنت أريد موقفًا رسميًا لا كلامًا عابرًا!

جميعهم كانوا قد قرأوا للأسف، المادة الثامنة عشرة من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان : لكل شخص الحق في حرية التفكير والضمير والدين.

جلستُ مع نفسي لساعات طويلة. فكرت مليًا، ما العمل ؟ ها قد حصل ما لم أكن أتوقعه. افتضح أمري ! ما الحل ؟ إنني أشبه بمن يحمل علم إسرائيل داخل ثكنة عسكرية لحركة حماس!

اتصلتُ بالعديد من الجمعيات الحقوقية بالخارج. أردتهم أن يطلعوا على قضيتي. أن يعرفوا ما معنى أن تكون ملحدًا بمجتمع إسلامي غارق في الإيمان والنفاق !

قلت لهم إنني مدون وناشط حقوقي. أرسلت لهم عناوين مدوناتي. أنا عادة، لا أكتب عن الإلحاد فقط. لقد نشرت مقالات أخرى كثيرة عن السياسية وحقوق الإنسان، عن مطلب فصل الدين والدولة ! كنت أيضًا أنتمي إلى عدد من الجمعيات الحقوقية، وعضوًا للمجلس التنفيذي لجمعية المدونين المغاربة بعد أن كنت واحدًا من مؤسسيها.

اتصلت بي صحفية تشتغل لقناة فرنسا ٢٤. أخبرتني عن اهتمامها بإجراء حوار تلفزيوني معي، حول ظاهرة المدونات الإلحادية...

ترددتُ كثيرًا، لكنني وافقت. كان موضوع الحلقة، كيف يمكن أن تكون ملحدًا ومدونًا في الآن ذاته، بدولة إسلامية ؟

تطرقنا للتهديدات والمشاكل التي أصبحت أتعرض لها منذ أن تم التعرف على هويتي.

كان هذا الحوار بمثابة المنعطف الأكبر في حياتي. تلقيت بعده طلبات حوارات أخرى. كنت أكره ذلك. لكنني اعتقدت أن هذه الخطوة سوف توفر لي حماية ضد من يريدون قتلي. لا أريد أن أبقى وحيدًا في معركتي ضد هؤلاء المؤمنين.

* * * * *

حاولتُ جاهدًا ألا يصل الخبر إلى زملائي بالثانوية. سكان القرية عادة لا يهتمون بشبكة الإنترنت ووسائل الإعلام الدولية. كان لابد لأحد أن يخبرهم.

كنت في ذلك المساء في طريقي إلى الثانوية. سمعت صياح أحدهم يلاحقني. كان يردد : يا كافر لعنك الله.

اقتربتُ من المدرسة. تلاميذ لا أعرفهم يرمونني بالحجارة. وضعتُ حقيبتي حول رأسي، وركضتُ مسرعًا إلى الداخل. توجهت مباشرة للفصل. رأيت في عيونهم لهيبًا مشتعلاً. مدرس مادة التاريخ أيضًا ينظر إلي بازدراء كبير. سألت صديقي الذي كان يجلس جانبي : - ما الأمر؟
طلب مني أن لا أكلمه مجددًا. قال لي إن مدرس الدين أخبرهم كل شيء.

علمت فيما بعد، أن عبد الكريم العزوزي، المدرس كريه الرائحة، أحضر حاسوبه الشخصي، وزار الأقسام التي يدرسها كي يطلعهم على مدونتي. قام بالتحريض ضدي. أخبرهم بأنني كافر، وأن أمثالي يشكلون خطرًا على العقول والسلام..
قال أيضًا إن حكم المرتد في الإسلام القتل. هددهم بخصم نقطتين لكل واحد من معدله العام، إذا ضبط وهو يتواصل معي !

فهمتُ الآن سبب الحجارة التي أمطروني بها خارج الثانوية.
نعم. كانت حملة مقاطعة ضدي.

غادرت الفصل على الفور. كنت كمن يعيش كابوسًا يتمنى أن يستيقظ منه فجأة، لكن لا يستطيع. تمنيت أن يكون خيالاً.

عدتُ في اليوم الموالي للمدرسة. صممت على العودة. لم أبالي بكل هؤلاء المرضى. توجهت لمكتب المدير كي أضع شكاية ضد أستاذ مادة الدين. لم يمنحني حق الاستماع. هاجمني مباشرة بكلام جارح. قال إنه أخبر كل الأقسام بالثانوية عن حقيقة أمري. راسل السلطات المحلية ووزارة التربية الوطنية، ليخبرهم أنني أتلقى دعمًا أجنبيًا كي أزعزع عقيدة التلاميذ.
دافعتُ عن نفسي رغم إهانته لي. قلت إنني أتحداه أن يأتي بدليل واحد على ما يقوله. ثم إنني لم أعبر عن مواقفي الدينية بالثانوية. كانت مجرد صفحة على الإنترنت ومجموعة من الحوارات الصحفية. تشبثت بحقي أمامه !

لكنه سرعان ما بدأ يدفعني خارج مكتبه. رفضتُ المغادرة. انهال علي ضربًا وسبًّا إلى أن أُغمي علي!
استيقظت بالمستشفى. شهادة طبية تثبت عجزًا لمدة واحد وعشرين يومًا.

مباشرة بعد ذلك، عقد المدير اجتماعًا طارئًا حضره ممثلون عن التلاميذ والأساتذة، ليقرروا طردي التعسفي من الثانوية. برروه أن مواقفي من الإسلام تشكل خطرًا على إيمان التلاميذ، واتهموني بالدعم الأجنبي لزعزعة عقيدة المؤمنين... تهمة يعاقب عليها القانون الجنائي المغربي بسلب الحرية.

أبي لم يحتمل كل ما حصل. حاول إرغامي على تقديم اعتذار للمسلمين بالمسجد بعد صلاة يوم الجمعة. أخبرني أن الإمام دعا المصلين وأهل القرية لمقاطعتي. الوضع بات فعلا متأزمًا!

لقد كان والدي ضد ما أقوم به. صدمته تصريحاتي الصحفية بخصوص قناعاتي الدينية. لكنه لم يحتمل كل التحريضات التي لحقت الأسرة جراء ذلك. لم أعد وحدي في هذا الصراع. هنالك من يصفنا الآن بعائلة الكفر. تلاميذ الثانوية نظموا وقفة احتجاجية أمام بيتنا. رفعوا شعارات ضد اليهود. صفير، وصراخ، وهتافات تطالب بسجني، ضربي، والانتقام للإسلام..

بدأتُ ألمس من أبي نوعًا من التضامن. عاطفة الأبوة كانت أقوى من كل شيء.

كنتُ أعلم أنني ملزم بالفرار، لم يعد منزلنا مكانًا آمنًا. ذهبت إلى منزل عمي لأستقر به بضعة أيام. شجعني على اللجوء للقضاء. قدمت شكايتين. واحدة ضد مدير الثانوية، والأخرى ضد مدرس الدين. ثم وكلت محاميًا لمتابعتهما. بقيت أنتظر إنصافي. أخبرني المحامي أن هنالك تعليمات تبطئ القضية. ثم تنازل عن الترافع عني !

كنتُ لا أخرج من بيت عمي إلا نادرًا، خوفًا على سلامتي.
مرة، حاولت ركوب سيارة أجرة من القرية إلى المدينة. السائق رفض السماح لي بركوب التاكسي.

في نفس الأيام، توصلت باستدعاء من وكيل الملك. شخص يدعى محمد بوكرون يقول إن رئيس جمعية إسلامية يرفع شكاية ضدي، يتهمني بالإساءة للمقدسات والملك...
نعم. ليس غريبًا !
الكثيرون يرون انتقاد الإسلام هجومًا مباشرًا على الملك. فهو دستوريًا أمير المؤمنين وحامي حمى الملة والدين، وشخصه مقدس لا تنتهك حرمته. فقط لأنه يدعي نسبه لنسل النبي محمد.

اختفيتُ عن القرية. أمضيتُ شهورًا وأنا أنتقل بين المدن. أسافر ليلاً خوفًا من أن أقابل أحدًا يعرفني. توصلت بمكالمات مجهولين يقولون إنني لا أستطيع الاختباء أكثر، وسيأتي الوقت لأدفع حياتي ثمنًا لما فعلت. سجلت واحدة، ونشرتها على الإنترنت. فكرت جيدًا فيما يجب علي فعله. أدركت أنني محاط بخطر قد يحدق بي في أية لحظة. قصتي اشتهرت. شخصي هو الحديث الأول لسكان قريتي. ليس القرية فقط، بل الإقليم بكامله. نشر حواري مع القناة الفرنسية على موقع اليوتوب. انتشر بعد

ذلك بشكل كبير. مئات الآلاف من المشاهدات. قال لي أحدهم إن معظم سكان قريتي شاهدوه. بعض الجرائد وجدت في موضوعي مادة كي ترفع المبيعات. المؤمنون يتوعدونني بالموت، على صفحات الفايسبوك!

اتصلت بالمنزل. أخبروني أن هنالك شكاية أخرى ضدي. الشرطة تستدعيني قصد التحقيق في القضية.. الشكايات ضدي تنزل بسرعة، ويقرر فيها وكيل الملك فتح التحقيقات، أما الشكايتين التي قدمتهما للقضاء فقد طالهما النسيان! .

• • • •

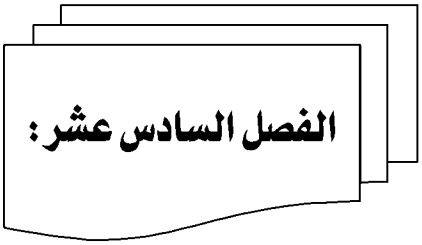

الـطـريق إلى الـمنفى

كان الوطن منفى.
لم أكن حُرًّا في فعل أي شيء. رجال المخابرات يلاحقونني. يتصلون بي في كل وقت. تقريبًا كل يوم. طلبوا مني حذف مدونتي، وتقديم اعتذار للمغاربة. وصل بهم الأمر إلى تهديدهم لي بالحبس.

عدتُ من جديد للتواصل مع منظمات حقوق الإنسان بالخارج. بدأت أفكر بشكل جدي في الهروب خارج الوطن. لا أريد أن ينتهي بي الأمر في السجن، أو الموت على يد أحد الإخوة في الله!.

نصحني بعض الأصدقاء بتقديم طلب اللجوء السياسي خارج البلاد. لا أدري كيف ؟ بعد بحث طويل ومضن، وبعد الكثير من الاتصالات بالخارج، علمت أن هنالك فرصة قد أستطيع من خلالها السفر إلى سويسرا!

عدت من مدينة الصويرة إلى الرباط.
كنت قد اخترتُ التواري عن الأنظار بمدينة الصويرة لبضعة أسابيع. لكن اليوم أعود للرباط في مهمة خاصة وجد سرية. كان لا بد من أخذ كافة الإحتياطات اللازمة حتى لا أثير الانتباه لي، وأنا أدخل بناية السفارة بالرباط ! بالجوار، كانت هنالك

مقهى، عرفت بتواجد بعض رجال الأمن والمخابرات. يتواجدون عادة أمام كل السفارات خصوصًا الغربية منها والإيرانية. دخلت السفارة من باب الزوار. جلست بقاعة الانتظار، سألني أحد الموظفين المغاربة مستفسرًا :

- مرحبا. كيف لي أن أخدمك؟

- معذرة، أريد طلب اللجوء السياسي.

قال الموظف مبتسمًا :

- لا نقدم اللجوء السياسي... إن كنت تريد طلب التأشيرة السويسرية، يمكنك تقديم الاستمارة من خلال موقعنا على الإنترنت.

- عفوًا سيدي. أنا متأكد مما أطلبه، هنا أستطيع ترشيح طلبي للجوء السياسي!

قال الموظف بغضب :

- لا تخبرني أنك تعرف القوانين أفضل مني. قلت لك نحن غير معنيين بموضوع لجوءك. هيا، يمكنك الانصراف. مع السلامة.

- لا سيدي. لن أنصرف قبل أن أتحدث إلى ممثل عن السفارة السويسرية. أريد سويسريًا لأكلمه. لن أغادر قبل أن أقابل السفير أو من ينوب عنه!

ينصرف الموظف نحو مكتبه، ثم يعود:

ـ من فضلك سيدي خذ مقعدًا!

انتظرتُ.. كان الوقت يمر ببطء. شعرت أن عقارب الساعة المعلقة أمامي ميتة لا تتحرك.

بدأت أراجع وثائق الملف الذي كنت أحمله، كل شيء هنا. قصتي بالصحافة، رسالة دعم ومتابعة لقضيتي من جمعية حقوقية بأمريكا، صورة طبق الأصل لجواز السفر، مقالات كتبتها مترجمة للغة الإنجليزية..

أحدهم قادم.. امرأة جميلة. أقف إلى الشباك من جديد. تمنحني استمارة معلومات. تسألني بعيونها الزرقاء أن أملأ المطلوب، اسمي، عنواني، جنسيتي، موضوع الزيارة. تستأذنني ثم تغادر.

أعود إلى مقعدي. أراقب عقارب الساعة من جديد. سحر تلك الأنثى جعلها تتحرك. أحس بالمستقبل. لم أعد صورة مصلوبة على حائط الحاضر.. الآن أحس بحركة الهواء. أحس بعيوني ! ينتابني شعور أنني حي!

لم أكن أعلم أنه السفير السويسري بشحمه ولحمه. أقف أمامه، بينما هو يجلس وراء الشباك بنفس المقعد الذي وضعت الجميلة مؤخرتها عليه.

يسألني :

- كيف لي أن أخدمك سيد الغزالي؟

- عندي قصة مع الاضطهاد الديني. حياتي في خطر بالمغرب. أريد طلب اللجوء السياسي.

يرد السفير:

- جيد، هل لديك أية وثائق تدعم بها طلبك؟

أمنحه الملف الذي أحمله بيدي.

- سنتصل بك قريبًا، مع السلامة.

اللقاء مع السفير لم يتجاوز الخمس دقائق.

غادرت السفارة، وأخذت القطار إلى الدار البيضاء.

بعد زيارتي الأولى للسفارة ببضعة أسابيع، أرسل لي السفير رسالة على بريدي الإلكتروني، يخبرني أنني مطالب بالعودة من أجل مقابلة مفصلة عن قضيتي، إذا أردت استكمال إجراءات طلب اللجوء. حددنا موعدًا لذلك.

دامت المقابلة لأكثر من ثلاث ساعات. سألني عن كل شيء. وأجبت بصراحة شديدة.

أخذوا بصماتي، وعبَّر لي السفير عن تضامنه معي.

قال لي: لو كان الأمر بيدي لمنحتك التأشيرة الآن. لكنني مجرد ساعي بريد، سيوصل قصتك لمكتب الهجرة ببرن.

حينما غادرت. كان دوام العمل قد انتهى. رافقني السفير إلى أن خرجت عبر مرآب السيارات. شاهدني حارس السفارة أخرج. لحق بي يسأل :

ـ كيف تمَّ كل شيء؟

لم أستطع أن أتبين إلى ماذا كان يصبو، خاصة أنه جاء بطريقة مريبة.

أقمتُ لبضعة أشهر، مختفيًا عن الأنظار. لا أزور قريتي. أتابع ما يكتب عني بالإنترنت. أرسل كل دليل من شأنه أن يدعم طلبي للجوء السياسي بالسفارة...

إلى أن اتصل بي السفير على هاتفي وأخبرني أنه عليَّ الحضور في أقرب وقت، من أجل البدء في إجراءات الحصول على التأشيرة.

تمَّ قبول طلبي من العاصمة برن.

زرتُ السفارة في الصباح. أخذوا جواز السفر، وطلبوا مني شراء تذكرة طائرة.

في المساء، حصلت على جوازي مختومًا بالتأشيرة. أخبروني ألا أطلع أحدًا أنني طالب لجوء. أكَّدوا على ذلك أكثر من مرة.

- أنت سائح ولست طالب لجوء... حظًا سعيدًا.

• • • •

❖ ❖ ❖

قاسم الغزالي

- كاتب ومدون علماني من مواليد ١٩٩٠ بمدينة سيدي قاسم المغربية.
- اشتهر بالكتابة عن إلحاده. ويعتبر أول ملحد مغربي ظهر للعلن ودافع عن حقه في حرية العقيدة.
- كتاباته تؤكد على أهمية حرية الفكر التي يتم حجبها والتضييق عليها بالدول الإسلامية.
- هو أيضًا ممثل مسرحي ومدافع عن الحريات الفردية. وناشط بمجموعة من الجمعيات الحقوقية الدولية.
- أثار جدلاً كبيرًا بسبب مواقفه من الإسلام السياسي والحركات المتطرفة، وقد لقى عددًا من تهديدات القتل بسبب آرائه.
- يعيش حاليًا كلاجئ سياسي بسويسرا.

Home page: http://atheistica.com

http://bahmut.blogspot.ch

Facebook: www.facebook.com/KacemOfficialPage

email :kacem@atheistica.com

شمس للنشر والإعلام

رؤية جريدة في عالم النشر

في مسعى جاد لتقديم رؤية جديدة تسهم في تصحيح العديد من المسارات في مجال النشر،تأسست "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" كخطوة على طريق إرساء أسس مشروع ثقافي متكامل يهدف إلى نشر الإبداع العربي في كافة التخصصات، وإثراء صناعة النشر، وتقديم إضافة حقيقية إلى مسيرة الكتاب العربي، وفق رؤى متوازنة تجمع ما بين طبيعة عملها كمؤسسة تجارية تتطلع إلى تحقيق الربح والانتشار، وبين تحقيق رسالتها الثقافية.

وتهدف "مؤسسة شمس للنشر والإعلام" إلى تحقيق عدد من الغايات، تتمثل في:

- إتاحة الثقافة الرفيعة للقارئ، وتلبية حاجاته من المعرفة.
- تفعيل حركة النشر، خاصة لشباب المؤلفين، ورعاية وتشجيع المبدعين، ودعم قدراتهم الفكرية والأدبية، والعمل على إبرازها.
- الإسهام الفعال في نشر الإبداع العربي، من خلال سياسات ترويج وتوزيع تتلاءم ومقتضيات العصر.
- حماية الحقوق الفكرية والمادية للكتّاب، وإعادة صياغة أسس التعامل المادي مع المؤلفين وفق قواعد أكثر إنصافاً.

- التعريف بالكاتب والكتاب إعلامياً وجماهيرياً، ومد جسور التواصل بين المبدع والمتلقي.
- الوصول بالإبداع العربي إلى القارئ غير العربي، من خلال ترجمة الإصدارات العربية المتميزة إلى لغات مختلفة، والعمل على خلق آفاق عالمية لنشرها بالتعاون مع دور نشر احترافية.
- إثراء الحياة الثقافية بالأنشطة والندوات والفعاليات، من خلال رؤى تنظيمية وترويجية تضمن نجاحها والمشاركة الفاعلة فيها.
- توثيق الصلات بين دور النشر المحلية والعربية والدولية، وكذلك بين الكتاب والمثقفين العرب، والتواصل الفاعل مع المهتمين على اختلاف توجهاتهم، وفق صيغ تعاون إيجابية.

ويرتكز عمل المؤسسة على منهاج "احترام الكاتب والكتاب" مادياً وأدبياً ومعنوياً، وفق عدة معايير تقوم على الالتزام التام بأخلاقيات مهنة النشر. وتسعى لتقديم رؤية جديدة لصناعة الكتاب تشمل الدقة في انتقاء المحتوى، والجودة في إخراجه وتصميمه وتنفيذه وطباعته، والاهتمام بنشره وترويجه إعلامياً ودعائياً، بما يضمن له مكاناً بارزاً في مكتبة القارئ.

شمس للنشر والإعلام

www.shams-group.net

(+2) 02 27270004 / (+2) 01288890065